مجموعة قصصية

رمادي اللون

مجموعة مؤلفين

رمادي اللون

الكاتب: سامي علوان ومجموعة مؤلفين

(مجموعة قصصية)

التدقيق اللغوي: أحمد إبراهيم

الإخراج الفني: ضياء فريد

تصميم الغلاف: محمد مجاهد

رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٣٢٨٦

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦٨٩-١٦-٩

كاريزما للنشر والتوزيع

٩ شارع مسجد المغفرة المتفرع من شارع العشرين بجوارمدارس حسام الدين الخاصة فيصل الجيزة.

موبايل: ٠١١٢٦٠٢٦٦٩١ ٠١٠٦١٨١٣٣٤٥

٠١٠٠٩٨٢٣٩٨٤

مجموعة قصصية

رمادي اللون

مجموعة مؤلفين

كاريزما
للنشر والتوزيع

سامي محمود عبد الله علوان

- اسم الشهرة: سامي علوان
- كاتب مصري من مواليد محافظة البحيرة.
- حاصل على ليسانس من كلية الحقوق جامعة الزقازيق.
- نائب رئيس مجلس إدارة قناة وجريدة شبكة أخبار مصر.
- صدر له مجموعة قصصية بعنوان (ليلة في روض الفرج) عن دار كاريزما للنشر والتوزيع.
- صدر له مجموعة قصصية مشتركة بعنوان (طريق اللا عودة) عن دار كاريزما للنشر والتوزيع.
- صدر له مسرحية بعنوان (كتكت الحكيم) مسرحية للأطفال ذات فصل واحد عن دار كاريزما للنشر والتوزيع.
- صدر له ديوان مشترك بعنوان (العزف على المشاعر) عن دار كاريزما للنشر والتوزيع.
- صدر له مجموعة قصصية مشتركة بعنوان (خبز تحت الحصار) عن دار (اسكرايب) للنشر والتوزيع.

وإذ أعبر عن مدى وعمق تقديري وشكري وعرفاني بالجميل لمن هم أصحاب فضل، إلى شريكة نجاحاتي (دار كاريزما للنشر والتوزيع) لولا إيمانكم بي ما خرجت كلماتي إلى النور.

الود يبقى وحب الله يجمعنا وعلى الدرب نلتقي دومًا بإذن الله.

لحظة غابرة

يبدو أنني تعودت على رفع صوتي أمام أمي وعصيانها دائمًا، فذكرتني بأشقائي وكيف أنهم يسمعون كلامها وينفذون نصائحها، وحذرتني أكثر من مرة من ردة فعلها على ما أفعله في حقها، وأنها عليَّ غاضبة، ولم يكن هناك بد من أن تصارحني في النهاية، فأشاحت بوجهها عني والدموع تغرق عينيها، وقالت: اذهب من هنا.. اذهب إلى أمك.. قد كفانا ما نلاقيه منك فلم نعد نتحمل عصيانك وشقاوتك وتمردك.

نظرت إليها وكأنني أراها لأول مرة، صعقتني كلماتها التي هبطت كالرعد من السماء غير مصدق ما أسمع.

- أمي!
- لست أمك.

بكيت ثم بكيت وأحسست وكأنني أكلمها لأول مرة، حاولت وحاولت أحسست ساعتها بأنني أفقد نبضات قلبي، وأن الدماء التي تسري في عروقي تؤلمني بشدة، فأنا أعرفها من ابتسامتها.. نبضات قلبها.. أنفاسها.

أخذت أستعطفها بأن تسامحني، ولكنها أبت وقالت لي: اذهب إلى أمك! فهي تجلس على عتبة المسجد الكبير، واعلم أننا أخذناك منها منذ صغرك؛ لنقوم على رعايتك وتربيتك، ولكننا فشلنا ولم نفلح.. هيا انصرف من هنا.

ثم بكت وأبت أن تحدثني وانزوت بعيدًا داخل البيت.

جلست في زاوية البيت أبكي حالي، وأحسست أن الحياة تلعب بي، حاولت وحاولت الهروب من بين براثنها، ولم أستطع كل الأشياء تحطمت الأحلام.. الأماني.

رأيت الخوف يقترب وكأنني لم أطمئن قط، إلا وأنا في حضنها.

شعرت وكأنني أحث الخطى ناحية الهاوية.. أسير في وادٍ من السراب، وتهت فيه حتى كان ظني أنني لن أرتاد الطريق بعد.. وأثقلت برأسي الأفكار والهواجس، حتى إنها قهرتني وهزمتني.. لحظات قليلة مرت عليَّ أحسست فيها باليتم والغربة والوحشة، حتى تملكني الخوف وأنا أبصر من بعيد أشباح المصير والمجهول، يكاد أن يلقفني رويدًا غرقت عيناي في نوم عميق ونمت.

أراها من بعيد تجلس على عتبة المسجد الكبير تستعطف المارة أن يساعدوها وهي تردد (لله).

تحركت قدماي ناحيتها، تتحسس الطريق واقتربت رويدًا رويدًا.. أحدق ناحيتها بناظري.. أحدد ملامحها.. أستحضر ذكرياتي الميتة عبر شريط ذكريات الماضي حتى غرقت في موج بحر هائج من اللا شيء.

جلست على مقربة منها يتملكني الذهول، غير مصدق ما سمعته منذ قليل.. ولم تعرني أدنى انتباه، وأخذت تستعطف المارة لمساعدتها وهي تردد (لله) اقتربت.. واقتربت.. والدموع تنهمر من عيني وهمهمات صدري، تكاد أن تفتك بأعماقي.. فبين لحظة وأخرى أصبحت ابنًا لها بلا مأوى!

عدت على صوت شقيقي الصغير، وهو يوقظني من نومي ويدعونني لتناول طعام العشاء.

ساعتها.. ساعتها فقط ارتسمت على وجهي ابتسامة خفيفة، لمع بريقها في عيني ليزيل آثار اللحظات الغابرة.

أسرعت أركض ناحية أمي أقبل يدها.. وأحتضنها وأطلب برها ورضاها.

ولكن - لربما

منذ الأمس القريب أخذتني الأفكار والهواجس ورزحت بي بعيدًا حيث هو، مع أنني لم أحظ برؤيته من قبل، ولم أكن أرغب كليًّا في هذا اللقاء، وكم وددت ألا أرحب به مطلقًا، ولكن.. ولكن شرارات الغضب التي كانت تتأجج من عينيه الحمراوتين وكادت تلهب وجنته باتت تطرح وتنبئني عن اتهام وشيك.

تساءلت في نفسي كيف تسلل حيث هذا الركن البعيد من مخيلتي، ورغم كل تلك الحصون!

اقترب منى رويدًا رويدًا وثبت عينيه في عيني وقال:

- ألست أنت الذي تجاهلت نفسك وانشغلت عنها؟
- لعمرى أنا من تسلل إليك عنوة عندما ضعفت حصونك ووهنت ثقتك فيمن حولك.
- بيد أنك أنت الذي فتح الباب لجنودي رغم رفضك الشديد.

- لعمري أنا الشك؛ حيث كثرة الظنون واختلاط الأمور وإرضاء الذات، وحيث الكبر والغرور ولا تلم إلا نفسك.
- نفسي ترفضك.
- كيف ترفضني؟ وأنا مهندسها وأعلم ما تختلج فيها من صراعات وظنون.
- ماذا تريد أن تصدر إليَّ؟ فأنا لا أصدقك ولكن.. لربما.
- ربما تكذب عليَّ ولكنها لا تخونني.
- لماذا تريد أن تشوه صورتها الجميلة؟ فأنا هكذا رآها قلبي.

أجابني بنبرات استعلاء بعدما رمقني بناظريه بكل غرور:

- ليس لي مكان وسط المشاعر.
- ارحل عني واتركني.
- كيف أرحل؟ وقد تملكت كل أفكارك واستوطنتك جنودي، ودكت كل حصونك، وكم كانت سعادتي حينما أبصرتها سبية تتهاوى واحدة تلو الأخرى مع وصول أول بذرة مني.

لحظتها.. لحظتها فقط رأيتها تتهاوى، تسقط كحبات العقد التي تتساقط على الأرض، لا أنت أمسكتها ولا حافظت على ما تبقى بيدك، وأخذت تترنح ما بين ما بيدك، وبين ما يسقط ويتهاوى وانفرط العقد.

أخذت نفسًا عميقًا وأحسست وكأنني أقف على أرض مهتزة، وفي باطنها بركان خامد قد ينشط ويثور.

أحسست أن كل ما حولي ساكن، لكنني أحس بأشياء وأشياء تتحرك في أعماقي تجرني إلى الظلام والسكون والموت.

في تلك اللحظات تعثرت بشيء في مخيلتي أراه من بعيد ينير ظلمة المكان الموحشة رأيته لحظات.. ولحظات رأيت فيه الخلاص ممن استوطن حصوني ويركض من خلفي.

كدت أن أختفيَ وأتعثر وسط الضوء الخافت حتى تحرك العقل في الظلام الساكن؛ ليعبِّرَ عما في نفسي، وتبادرت الأفكار في لحظة صمود، حاولت أن أتحداه أو أُوَاجِهَهُ، لكن سرعان ما قذفتني الأفكار بكل قوتها لتتقوقع أعماقي وتطرب نفسي وترتجف.

كدت أحس بأن روحه قريبة من روحي، وأدرك أن كل ما أفكر به يمر بذهنه من قبلي لأصاب بالخنوع، ويقتل البراءة في قلبي ويطفئ بريق عيني، وكأنني أساق إلى غياهب متاهة الداخل إليها مفقود، أنقم على كل من حولي حتى رأيت نفسي بكل قوتها، تعاود وتعاود الصمود ثانية يقينًا منها بأن جزاء هذا الصمود أن أتحرر من عبودية ذلك الشك اللعين.

لست بأولهم

انتفضت من مكاني أجوب بناظري كل الحضور من صبيان القرية أتشممهم وكأنني أبحث عن شيء ما.

لم أكن أمارس هوايتي أو أستعرض موهبتي التي علمني صديقي إياها.

تسمرت أقدامي أمام ذلك الصبي الصغير ذي الشعر الكثيف، الجالس على مقربة من الساقية القديمة.

أخذت أراقبه بناظري أينما غدا أو راح، ثم أعود لأقفز وأحط حول صديقي الذي لم يلحظ اختفائي المفاجئ على غير عادتي.

في الصباح، شاهدته يتسلل من باب الحظيرة، أسرعت أركض ناحيته وأنبح بأعلى صوتي وأتقدم ناحيته مرة، وأتأخر مرة أخرى، وأنبش بمخالبي في الأرض بعدما تأكدت ظنوني، حتى صدَّرْت الرعب إلى قلبه، فأخذ يرتعد ويبكي وألقى بالجبن من بين يديه ثم فر هاربًا.

نهرتني جدة صديقي ورمقتني بعينيها، ولملمت بقايا الجبن ثم انصرفت وصديقي عالق في حيرة من أمري، تساوره الشكوك والظنون ونظراته ترمي بسهام الشك والحيرة.

وجدته يتساءل في صمت أفهمه بمجرد أن تتلاقى أعيننا عن مدى تغير مزاجي وطباعي في الفترة الأخيرة.

ومرت الأيام وسهام الشك تقتلني وتؤلمني وتفتك بأعماق فؤادي، حتى انطفأت البهجة من حولي، والجدة تشتكي من سرقة الجبن من حظيرة الماشية.

تركني وانزوى بعيدًا وهجرني، ولم يعد يلاعبني حتى تغير طعم الأيام، وبدت مرارتها تبعث بشراراتها من حولنا.

في المساء، وجدتهم يتغامزون وهم يشيرون إليَّ، أحسست ساعتها بأن هناك شيئًا ما يحاك ضدي، وكانت صدمة عنيفة هزت أعماقي.

سمعته ينادي عليَّ، هرولت إليه مسرعًا لأحتضنه، وأنا أهز ذيلي وألف وأدور من حوله متناسيًا ذاكرة الأحداث ومرارة الأيام السابقة.

لم يفتح ذراعيه هذه المرة ورمقني بناظريه، وأخذني بجواره وانطلق بالعربة الكارو وسط القرية، تدفعنا العربة وتموج بنا وسط المزارع والحقول ووسط القرى المتراصة على حافة النهر الكبير.

سويعات قليلة مرت علينا، أحسست به وكأنه يحمل عبئًا ثقيلًا على كاهله، حينما أبصرت العبرات تغرق عينيه، وهو يحتضنني ويبكي، لم أتمالك نفسي ساعتها فغرقت عيناي.

حملني وهو يبكي ويتمتم كمن يحدث نفسه، وبِيَدٍ تملكتها رعشة خفيفة قذف بي في النهر الكبير.

لحظات قليلة حاولت وحاولت، ولم أستطع سوى الاستسلام وكأنني أساق إلى حتفي على غير إرادتي بعدما سُلِبَتْ قواي.

تذكرته لحظة أن أخذني من تحت أمي، وأنا ما زلت صغيرًا ليرعاني، ويرضعني بنفسه من حليب الماشية لحظة أن استعصى عليَّ أن ألقف ثدي أمي، وسط تكدس ونهم إخوتي الأكبر مني حجمًا.

تذكرته حين كنا نلهو ونلعب ونجري هنا وهناك، وسط الحقول وعند الساقية القديمة على مشارف القرية كانت صحبتنا.

عدت لأجدني أغوص وأغوص بأعماق النهر الكبير المظلمة، توقفت أنفاسي بعد امتلاء صدري الصغير بمياه النهر.

ارتطمت بقاع النهر، يَكَادُ يغشى عليَّ وكادت نبضات قلبي أن تتوقف.

استجمعت بقايا قواي المنهارة، وسلمت نفسي لمويجات النهر حتى لفظني النهر إلى سطحه.

لحظتها.. لحظتها فقط تحركت أقدامي تضرب صفحات مياه النهر لأتحرك ببطء ناحية الشاطئ.

لحظات قليلة مرت على كدهر طويل، أحمل على كاهلي ما لا تحمله الجبال لا أصدق نفسي، أخاله كابوسًا راودني.

أخذت أنفض بقايا الماء العالق على جسدي، وأبحث عنه هنا وهناك، حتى رأيته يختفي خلف الحجب؛ حيث تعانق السماء الأرض.

جلست وحيدًا تطاردني الذكريات تارة وتدفعني الأشواق إلى العودة تارة أخرى.

كيف أعود! وهم من أساءوا الظن بي وألقوا بي في ظلمات النهر.

لحظات عصيبة مرت عليَّ بمرارتها، وأنا عالق ما بين وفائي وكرامتي.

أدوس على قلبي حتى يتمزق ويئن وينزف، ولن أنحنيَ أبدًا، فلست بأول المنبوذين وآخر اليتامى.

كثيرة هي تلك الصراخات التي تعج بصدري، وتطرح همهمات تختلج أعماقي حتى إنني أكاد أن أسمعها.

رويدًا رويدًا سأتناسى الحزن الدفين، وتلك الأشجان مع الصبر ستمسي ذكرى.

ومهما تجاوزت تلك الشكوك، ومن أساءوا الظن بي سأصطدم بمعالمهم.

دائمًا ما تبدوا صورتهم أمامي وفي مخيلتي تعود ذكراهم من حين وآخر على الرغم من مرور سنوات طوال.

قد ظننت لوهلة قصيرة من الزمن –وأنا أعيش معهم– أنني منهم ولكنني أصبت بخيبة أمل عندما أبصرتهم وهم يتغامزون ويشيرون إليَّ.

كيف وأنا المؤتمن الأول عليهم وعلى ماشيتهم!

لملمت بقايا نفسي، ورحت أحث الخطى وسط الظلام، أتحرك ببطء شديد خطوة تلو الأخرى ناحية القرية.

جلست بجوار الساقية القديمة على مشارف القرية، ألتقط الأنفاس أتحسس ترابها أتشممه وأنا أبكي.

أخذتني أقدامي؛ حيث البيت الكبير، وجلست ما بين عيدان الحشائش أراقبهم من بعيد.

لم أتمالك نفسي عندما رأيته يبكي وينعي فراقي، بكيت وبكيت، وودت لو احتضنته ومسحت دموعه وواسيته، حتى إنني كدت أن أهرول ناحيته لأحتضنه.

انتظرت وأنا على هذا الحال، لا أعرف كم مضى على من الوقت، وبينما أنا ما بين اليقظة والنوم، إذ تشممت رائحة تهب من بعيد وسط الظلام.

شبح يقترب، إنه سارق الجبن يتسلل إلى داخل الحظيرة، أسرعت أهرول ناحية بابها واحتجزته بداخلها، وأخذت أنبح بأعلى صوتي، أنادي عليهم ليفيقوا من سباتهم مرة.. مرتين.. ثلاث مرات.

ظنوا أنها أضغاث أحلام تراودهم، ولكنهم سرعان ما نهضوا مسرعين ناحية الصوت الذي غاب عنهم منذ الأمس القريب.

أمسكوا به وبيده قطع الجبن وقيدوه بالحبال.

وجدتهم يطأطؤون رؤوسهم خجلًا مني يتسابقون يريدون أن يحتضنوني.

هرول صديقي ناحيتي فاتحًا ذراعيه، فتراجعت إلى الوراء ودمعت عيناي، فإنني لم أحزن على إلقائي في غياهب النهر الكبير، قدر ما حزنت جراء نظرات الشك والحيرة التي رأيتها في عينيه وانزويت خلف الحجب، مع ما تبقى من كرامتي أتجرع مرارة الحرمان.

أشواك الربيع

أخذت أنظر وشريط ذكريات السويعات الأخيرة يتراءى أمام عيني، وصور أشلاء القاتل والمقتول المبعثرة تدفعني إلى البكاء والصراخ.

حاولت أن أجمعها ولكنني لم أستطع، تخطفها الكلاب الضالة المسعورة وفرت بها بعيدًا.

حاولت أن أطاردهم، ولكن ضاعت كل محاولاتي سدًى، فطلقاتهما ما زالت تتربص بنا جميعًا تتصيدنا منذ الصباح.

أمسكت بذراع أحدهم لا يعنيني من أي فريق هو، فكلنا أبناء وطن واحد فرقتها الأطماع.

جذبته من بين أنياب ذلك الكلب الضال المسعور، الذي أخذ ينبح بأعلى صوته وشرارات الحقد والغضب تتطاير من عينيه، وهو يهاجمني، ويتقدم خطوة ويتأخر أخرى، وأنا ما زلت أصده وأقذفه بالحجارة حتى تراجع وابتعد وانزوى بعيدًا بين الحطام.

عدت أحفر وأحفر لأواري ما تبقى من الذراع.

لحظات قليلة مرت عليَّ بقسوتها ومرارتها، رأيت نفسي تحترق والدماء تنزف هنا وهناك بين أبناء الوطن.. بين إخوة فرقتهم الأطماع.. أحسست بعدها بدمي يعود بدفئه رغم الآلام الشديدة، وبدأت أحرك قدماي على الحصى، وكأني أهرول على الأرض لألحق بركب النازحين، أحس بالخزي والعار، وكأن السماء ستتخطفنا، والأرض ستبتلعنا، والكلاب الضالة ستقطعنا إربًا إربًا، وكأنه قد أصابتنا لعنة.

بين معترك الطقس السيئ أصارعه، ويصارعني.. أصارع الموت ويصرعني، أتقدم تارة وأنسحب أخرى، وسط أشواك الربيع وقدماي تتناقل في بطء وتثاقل شديدين، كادتا أن تتوقفا تمامًا عندما أبصرته من بعيد وسط الظلام، فاتحًا ذراعيه تهزه الريح، وكأنه الموت يحتضنني.

كادت الدماء أن تتجمد في عروقي، ونبضات قلبي تتلاشى رويدًا رويدًا، حتى انهارت قواي جميعًا، وأسلمت نفسي لأول موجة من موجات النازحين ترميني هنا وهناك وسط الأشواك.

أراني أساق إلى حتفي، وأحسست ساعتها أنني هالك لا محالة مع الهالكين.

عدت أتخبط وأتشبث وأتحرك وأسكن حتى ابيضت عيناي، ووهنت قواي، ونحن نتحرك كالطوفان الصغير، وهو ما زال واقفًا فاتحًا ذراعيه وسط الظلام.

عدت أسقط على الأرض أستلقي على ظهري، وما زال قلبي الصغير مستمر في الخفقان، أزحف على الأرض بحذر شديد يتملكني الخوف.

أتذكر كيف أصبحنا إخوة أعداء، جماعات تتناحر داخل الوطن الواحد، كم كانت هزة عنيفة هزت أعماقي ووجداني، ودارت بي الأفكار والهواجس، وأحسست ساعتها بغصة في قلبي لن تُشْفَى وأحسست بالخوف والهوان!

بقايا الأشلاء المبعثرة على الأرض وسط الحطام، تبعث على النفس السوية الاشمئزاز والنفور.

لحظات قليلة اندلعت فيها نار الفتنة وشبكات الأخبار تتابع الأحداث عن كثب.

شريط باللون القرمزي أسفل الشاشة، ارتفاعُ عدد ضحايا الربيع العربي ورؤساء الدول ينعون بكل الحزن والأسى ضحايا التفجيرات.

لحظات قليلة مرت عليَّ وأنا ساكن أحس، وكأن الدنيا تطبق علينا بكل قوتها لتلفظنا وتكاد السماوات أن تتخطفنا.

أخذت أزحف وأزحف حتى اصطدمت به، فَخَرَّ مغشيًّا عليّ في مكاني.

عدت في الصباح على حرارة الشمس تكاد أن تحرقني لأجدني وسط الأشواك يحرسنا خيال المآتة.

هكذا قلبي

طوال الوقت ـ الليل.. النهار ـ وأناملي تتحسس، تتراقص على الحروف، تتناقل فيما بينها.. تخط أجمل الكلمات والمعاني والألحان على رسائل هاتفي، أحمله بجوار قلبي رغم كثرة التحذيرات، وأحس بنبضه وأذني تتلهف، ترصد رنين رسائله ما بين اللحظة والأخرى.

أعيش على أوتار حروفها ما بين السطور، نعيش معًا رغم بُعد المسافات، وأحسه يفتح جناحيه ويطير ويحلق من حولي.

لوهلة من الوقت، ظننت أنه سيحلم وأنا من يحقق أحلامه، أراه من أمامي هنا وهناك بهمساته ونور عينيه السمراوتين، منذ أن رأيته أول مرة وهو يجلس على الطاولة داخل المقهى الكبير بمعطفه الأسود الثقيل، الذي كاد أن يخفي وجهه الأبيض، وحذائه الشتوي ذي الرقبة الطويلة، وأمامه على الطاولة فنجان القهوة تتصاعد منه الأبخرة، رأيته بالأمس القريب يجلس على سجيته في نفس المكان، وما أن يحتسي رشفات من القهوة، حتى

يغادر في هدوء وكأنه ينسحب من الحياة، أمسيت أنتظره وانتظرته ولم يأتِ، انتظرته طويلًا يدفعني الحنين إلى رؤياه وأخذت أبحث عنه هنا وهناك، في الطرقات، في الأسواق، في المقهى الكبير، حتى وجدته يتوهج نور وجهه، فتمنيت أن أعيش في نور عينيه، وأن أرى ابتسامته التي خلعت قلبي من مخدعه وأسرته من سباته العميق.

قابلته هذه المرة بشغف لم أعهده، كانت لديَّ رغبة شديدة للتقرب إليه، لم أكن أدري ساعتها أن هناك شيئًا ما يجذبني يدفعني إليه بكل قوة.

اقتربت منه أحادثه، ارتعشت شفتاي وارتجفت، ونبض قلبي رغمًا عني وتساءلت: ولماذا الآن؟

ولماذا أنت؟ ولماذا أنا؟ فليس بيدي، ليس بمقدوري.

ومنذ تلك اللحظة وأنا أشهد حبه، حنينه الذي يشبه النهر الصغير الذي يكابد في صمت ليصنع طوفانه الصغير، فيغمرني بحبه وينأى بي بعيدًا عن همساتهم وأعينهم.

يعرف ارتباكي، فأنا لا أتحمل أن ترمقني الأعين وتلوكني الألسن وترفضني العادات والتقاليد.

أصبحت أهيم بروحي من حوله، لعلي ألمس نوره ليلة سقوط القمر فيعرفني ويفتح جناحيه، يضمني ويحتضنني، ثم أترك قلبي هائمًا من حوله، وأنصرف حتى نلتقي من جديد، تلامست الأنامل

وكان لصدى حديثهما معًا معنى جديد، من معاني الحب والوفاء لم أعهده من قبل.

قال لي ذات مساء: اعلمي أنكِ بعيني أجمل بكثير من عيناك! إنها الأرواح التي جمعتنا حينما رفرفت بجناحيها في السماء حول المقهى الكبير في تلك الليلة.

ساعتها أحسست كم أعشقه، وكيف لا أدرى!

إنني أثق أنني أعرفك منذ زمن بعيد، وكم أنا مخلوق ضعيف أمام مشاعر تأججت بأعماقي! وكم أخاف عليك ولا يرضيني عذابك من حبي!

عدت، تراجعت خوفًا عليه من ذلك الطوفان الجارف وابتعدت.. وابتعدت حتى اقتربت لأجد نفسي عالقة في عالمه، أذوب عشقًا بحبه حتى إنني أرى القمر ساطعًا في وجهه، في منامي، ويقظتي.

رأيت الخوف في عينيه خشية أن يفقدني.. تسمرت في مكاني عالقة بحبه، لا أدري أأقترب أم أبتعد!

ومرت الأيام وكلماته ما زالت عالقة في مخيلتي تتردد على مسامعي، وَلِمَ لا؟! وإن أمكنني أن أفصل أرواحنا وأجسادنا عن بعضها ساعتها.. ساعتها فقط أستطيع أن أخبرك كيف كان وأنا؟ وكيف يكون وأنا؟ وكيف سنكون؟ حتى رأيته يجلس معها على الطاولة داخل المقهى الكبير يتبادلان الحديث، حاولت

أن أقترب، خذلني سريعًا في الوقت الذي كان فيه كل شيء في عالمي.. أحلامي.. منامي.. يقظتي.

عدت بين ليلة وضحاها على نبرات صوته وكأنني أفقد ذاكرة الأحداث كالمصابين بخرف الشيخوخة، رأيت نفسي غارقة في الأوهام ممعنة في عشقه أرفرف بأجنحتي فوق سحابات الأحلام، أغض طرفي عما حولي من مرير الحقائق والأحداث، أرهقتني كثيرًا هي تلك المشاعر، إشارة تلو الأخرى يرسلها عقلي أبى قلبي قراءتها، هكذا قلبي.

النظرة الأخيرة

منذ أن رأيته في رؤياي بوجهه المشرق فاتحًا ذراعيه لأحتضنه، وأنا على هذا الحال أتنقل ما بين صناديق القمامة المنتشرة في شوارع المدينة الواسعة لعلي أعثر عليه.

فقبل فترة ليست بقصيرة لجأت لي زوجتي تستشيرني في أمر يقلقها ويحزنها وتحدثت دموعها عن رغبتها في احتضان وتربية طفل صغير.

لم أُوَافِقْها على فكرتها في البداية، ثم سرعان ما قهرتني دموعها وأسرتني توسلاتها؛ فتملكتني الرغبة في احتضان طفل صغير، وربما لا شيء فريد يمكن أن يتحقق دون ألم وتعب وجهد ومشقة ومذلة أحيانًا.

أكاد أن أبكي وأصرخ في صمت، وأتألم عندما ألمح نظرات الحزن في عينيها وشغفها الشديد.

أخذت أبحث عنه هنا وهناك في دور الأيتام.. الجمعيات الخيرية.. ولكن ضاعت كل محاولاتي سدًى وسط تعقيدات الروتين.

كاد أن يتملكني اليأس، وأحقد على كل من حولي، وكدت أختطف طفلًا، ولكن سرعان ما كنت أعود بعدما يراودني الأمل.

عدت لكي ألقيَ النظرة الأخيرة على هذا الصندوق، لعل أحدهم أو إحداهن تحجر قلبه ويحمله ويلقيه داخل الصندوق، أو يضعه على عتبة دار أو مسجد أو كنيسة.

سرت ناحية الصندوق أحمل معي، وهم من السعادة والأمل مع ما راودني من إحساس خفيف بالحيرة والقلق ليقيني بأنني لربما أجده هذه المرة.

كنت أضطرب وأنا أقترب من الصندوق، خشيت أن أعجز عن العثور عليه لأهديه لزوجتي.

جريت ناحية الصوت.

ناحية الصندوق.

فزعت من فوضى صرخات الطفل من تحت لفافات القمامة السوداء.

أخذت أرفعها بيدي العاريتين من فوقه لا أصدق نفسي، وددت لو قرصني أحدهم وقد لاح بريق الأمل في عيني أمل ما بعد اليأس.

منذ زمن بعيد وأنا على هذا الحال مستمر في محاولاتي اليائسة، لربما كانت هذه المرة ثمرة تعبي ومشقتي، وعذابات المرات السابقة، فلربما اعتبرني المَارُّون من حولي أنه قد مسني شيء من خبل أو اعتبروني ممن يقتاتون فضلات القمامة.

لم يكن مجرد حلم مر بمخيلتي أو فكرة طرأت في ذهني فجأة.

في لحظة ظلام رأيت النور ينبعث من خلف لفافات القمامة السوداء، يتلألأ من وجهه المشرق أنار ظلامي.

ولكن ماذا لو شاهدوا انفعالاتي واحمرار وجهي، وارتباك يداي وهي تحمله؟ وماذا لو صرخ الطفل؟

حينها... لم يطل وقوفي عند الصندوق كثيرًا حملته بين يداي وأسرعت الخطى ناحية البيت.

صعقتني اللا مبالاة التي قابلتني بها زوجتي، ولم أرَ الشغف في عينيها، حاولت وحاولت أن أعطيها الطفل لترضعه ليكفَّ عن الصراخ، بكت ثم بكت وحاولت أن تخبرني أن ما بين يدي مجرد دمية وليست طفلًا!

تملكني الخوف ونظرت إليها وجدتني لا أعرفها، فكلماتها هبطت عليَّ تصعقني، وتقضي على ما بقي فيَّ من آمال غير مصدق ما أسمع وأرى.

أخذت تضرب بكلتا يديها بعضها البعض، وهي تبكي وتردد (لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم)!

حاولت أن تقترب مني، تراجعت إلى الوراء وانزويت بعيدًا أحتضن الطفل وأُرْضعه من زجاجة الحليب.. أبى الطفل أن يرضع أو يتحرك وأخذ ينظر إليَّ بناظريه وثبتهما ناحيتي.

أحسست ساعتها.. ساعتها فقط أن كل من حولي يطمع في هذا الطفل.. كل يريد أن يختطفه من بين أحضاني.

رأيت الطمع في عيونهم والجشع في إلحاحهم وإنكارهم.. أبيت أن أستسلم لهم وأخذت أهرول هنا وهناك أهيم على وجهي.

مرارة أقداح الدين

لوهلة قصيرة من الوقت ظننت أنه حتى هذه اللحظة كل شيء على ما يرام.

فأنا أعرف على الأقل كيف أسدد هذا الدين وأرتاح من كل تلك الضغوطات التي كادت أن تكدر على صفو حياتي.

أسرتني رائحة الطعام المنبعثة من بيتنا حتى إنها جعلتني أحس بآلام الجوع.

زوجتي تجعل طعامنا شهيًّا طيب المذاق والرائحة.

جلسنا حول مائدة الطعام ودار بيني وبين أخي الصغير حديث، لم يدم طويلًا، أخذت أسأله عن أخبار وأحوال الأهل في البلدة، وهو يبتسم ويطمئنني وهو منهمك في تناول قطع اللحم المشوي اللذيذة.

سألته عن أخبار أولاد أخي وعن مدى فرحتهم باللعب مع الخروف خاصتي، والذي تركته في البلدة قبل عدة أيام مضت، قبل سفري إلى تلك المدينة.

صمت قليلًا ورحت أحملق في الفضاء أمامي وعادت عيناي بعد أن اصطدمتا بجدران المكان.

باغتتني نوبة من الغضب لا أعرف كم ستدوم، وبخيبة الأمل التي أصابتني وتملكتني الحيرة حين سئمت منه ذلك.

وفجأة تتلاشى الأصوات في الفضاء من حولي، ومنذ تلك اللحظة تحول ما كان في نفسي من سكينة إلى حالة من اليأس، أتجرع فيها مرارة أقداح الدين، ورجعت بظهري واستندت على الكرسي، ورحت أصمت في أسًى، وشهقت بمرارة حتى إن قطعة اللحم المشوي التي كانت بيدي وقعت، وتوقفت الحركات داخل فمي عن طحن الطعام، وأحسست بمرارته في حلقي، وغابت عني رائحة الطعام التي كانت تأسرني منذ قليل، منذ أن سمعته وهو يخبرني بأن هذا هو لحم الخروف!

خيم الصمت من حولي قليلًا وسيل ذكريات ليلة البارحة أراه يمر من أمامي، أتذكره وهو يطالبني بسداد الدين الذي اقترضته منه منذ عدة أيام مضت.

لا شك أنه تعجل في طلبه! ولكن حقه!

يعود إلى مطالبتي بعد أسبوعين فقط من إقراضي إياهم! ودارت برأسي الأفكار والهواجس ولم تترك في خاطري ركنًا إلا وتربعت فيه.

عدت أستغفر ربي ومددت يدي أحركها من جديد، ألتهم قطع اللحم المشوي لأسد جوعي، وأخذت أمضغها ما بين فكي، وما عدت أتذوق طعمها ولم أعد أتشمم رائحتها التي كانت تأسرني منذ قليل، هكذا غابتا!

أيام قليلة مرت.. يوم.. اثنان.. ثلاثة أيام تمزجها مرارة أقداح الدين تسري هي كالنار في الهشيم، حتى إنها سرقت مني البسمة وسحبتني لتدخلني في حسبة خاسرة، حتى إنني أدركت أني انتهيت وتشابه ليلي ونهاري، ولم أعد أحس بمرور الوقت توقفت العقارب لتلسعني.

رويدًا رويدًا اقتربت الشمس من المغيب، وغابت ثم تابعها النهار المتربص بي وأنا أجر أذياله نحو المغيب، حتى إنني أمسيت مثقلَ الأفكار والهواجس.

عدت على صوتها وهي تناديني وهي تطبطب على كتفي: زوجي الحبيب ما فائدة الحلي بيدي وأنا أراك مهمومًا مقهورًا، تتجرع مرارة أقداح الدين!

لم أكن أدري

من الواضح أن ثمة شيئًا ما يربط بيننا، وأن ثمة علاقة باتت تجمع بيننا منذ أن عاهدتها.

قد تبدو المسألة بالفعل غريبة وغامضة منذ وقت ليس بقصير عندما دخلتها أول مرة متكئة على العصا، أعاني من آثار جلطة في شرايين ساقي اليمنى، وكأن كل شيء معد ومحسوب منذ زمن بعيد دون إذن أو موافقة.

أرقد على السرير بجسدي الهزيل داخل إحدى غرف المستشفى الكبير، أعيش حالة من التعب والإجهاد، كادت أن تقضي عليَّ، تعتصرني الآلام إثر تلك الجلطة في شرايين ساقي اليمنى، جعلتني أحاول التشبث بآخر خيط ضوء ساقط من خلف ثنايا النافذة.

استدار الطبيب ومضى في طريقه على غير عادته، يهمس لتلك ويتحدث لهذا، ويشير بيده لكل من حوله هنا وهناك، وبصري يسابق ابنتي التي تتبعه، مصغية لكل حرف كلمة حتى انتهى بها المطاف حيث أرقد.

عاد بصري يلاحقها، وما أن وقع عليها حتى وجدتها تبكي وتبكي، وهي قابعة على أرضية الغرفة ملتصقة بسريري، وقد بدا عليها علامات الحزن الدفين وأحاط بها الفزع من أمر جلل.

تطلعت إليها وأنا ما زلت راقدة أتأوه من شدة الألم، حتى تلاقت أبصارنا، ونظر كل منا إلى الآخر نظرة غارقة في بحر من الدموع، حتى هربت أبصارنا وسبحت ما بين جدران الغرفة، وشعرت لأول وهلة بالخوف وملأ اليأس نفسي، واستبد منها، أفزعتها الآلام وانكسار ابنتي وحسرتها، فبكيت بمرارة وزادت حسرتها وهي ترمق جسدي الهزيل وتمسح عني بقايا العرق المتصبب.

حاولت وحاولت أن أعرف ماذا قال لها الطبيب، أبت، وأبت وأخذتني ما بين أحضانها وأخذت تبكي وتبكي، ولم يكن هناك شك أن هناك أمرًا جللًا يخفيه الجميع، ولقد حاولت جهدي أن أعرف دون جدوى، وما هي إلا لحظات قليلة مرت حتى وجدت ابنتي تمسك القلم وتوقع بيد تملكتها رعشة خفيفة على الأوراق المتراصة ورقة تلو الأخرى، والدموع تمتزج مع حبر القلم على الأوراق.

قد رأيت الطبيب يدخل غرفة العمليات ومن خلفه وعن يمينه ويساره طاقم التمريض وكانت آخر الكلمات التي ترصدتها أذني: سنحاول إنقاذها إن شاء الله، وكنت أكره أن أغيب عن الوعي مرة أخرى وأعود بلا .....

وبعد فترة صمت طالت عدت أسمع قوله: يتم نقلها بسرعة إلى غرفة العناية المركزة، وخيم الصمت من جديد برهة من الزمن وقد بدا عليهم الحزن الشديد.

تذكرته ولكني كنت آمل عبثًا فقد استمر منه التجاهل والجحود ونكران الجميل، حتى بعد أن دخلت المستشفى إثر تلك الجلطة التي أصابت شرايين ساقي اليمنى، وكأن جسدي الهزيل أبى أن يسير دمه بداخله فزجره ونهره واحتجزه في مكانه، لا يبرحه حتى تخثر داخل شرايين ساقي اليمنى.

ماذا يضيره أن يمنحني أدنى حقي في إرثي الذي ظللت أهبه إياه، منذ زمن بعيد ومر بي الزمن وأخذت من الصدمة ما أخذت، وهو ما زال في عناده وكبره اللا متناهي أبى، وأبى أن يرد الحقوق إلى أهلها.

تذكرت تحذيرات ابنتي، وكيف أني صفعتها على خديها وعجبت.. وعجبت لفعلته وكأنه ليس بأخي الذي عاهدته منذ طفولتنا.. أيكون حقًّا قد أصابته أمراض الشيخوخة والهرم؟

رجوته ورجوته عله يسمع رجائي، ولكن أحدًا لم ينتبه! أو يسأل عني!

لشد ما كنت حزينة مشفقة عليه كارهة لنكرانه وجحوده.

عدت أحاول وحاولت أن أحرك قدمي اليمنى، أتحسسها ولكن محاولاتي لم تفلح، ولم أستطع ولم أكن أدري ما بي في تلك اللحظة.

ما لي لا أحس بساقي اليمنى؟ ما لي لا أستطيع أن أحرك قدمي اليمنى؟ ما لهم يقفون شاردي الذهن، وكأن على أبصارهم غشاوة!

فأكثر ما كان يقلقني هذا الإحساس الغريب، لم أكن أريد منهم شيئًا سوى أن أطمئن.

أحسست بضربات قلبي تكابد، تكاد أن تصرعني، ولكنها ما لبثت أن خف حسيسها رويدًا رويدًا، ولم تدم طويلًا، وسرت قشعريرة خفيفة في جسدي الهزيل، حتى أخذت نبضات قلبي تضعف وتتلاشى.

سعاد عبد اللاه

- من مواليد محافظة السويس وتقيم حاليًا في محافظة سوهاج.
- بدأت كتابة الأشعار في مرحلة مبكرة، كانت لها عدة مساهمات في راديو القناة في مجال إلقاء الأشعار، وشاركت بأشعارها في عدة مسابقات وحصلت على جوائز من القناة الرابعة في هذا المجال.
- صدر لها هذا العام أولى رواياتها تحت عنوان (دمية الباليه).

أهدي قصتي لمن قدموا لي المساعدة عندما احتجت لهم، أولهم (أمي) تلك التي تقرؤني بروحها وتلمس وجداني، و(أبي) الذي عاصر روحي منذ الأزل، وزوجي الحبيب: الأمير فيصل حسين الطبال، الذي له الفضل في مساندتي وتحفيزي، ولكم أولًا وآخرًا خالص الإهداء.

لا حديث مع الغرباء

جلست بجوار نافذة القطار تتطلع باهتمام مصطنع لذلك الضجيج برصيف المحطة، لكن شرودها يأخذها إلى مكان آخر، تستعيد كل أحداث الماضي، تتذكر حديث عمها عندما عرض عليها الزواج من أحدهم ورفضها له من أجل استكمال دراستها (الماجستير والدكتوراه).

«لن أغصب عليك الزواج، ولم أبخل عليك يومًا في شيء، بعد وفاة والدك ووالدتك أصبحتِ مثل ابنتي لم أفرق بينكما، لكنني حقًّا أصبحت غير قادر على تحمل أعباء مصاريف تعليمك أكثر من ذلك، لك حرية الرأي».

لم تكن المرة الأولى التي تشعر فيها بأنها وحيدة في ذلك العالم، لكن كعادتها تتصنع عدم الاهتمام واللا مبالاة حتى بينها وبين نفسها، لأول مرة تترك مدينتها النائية البعيدة عن الضوضاء إلى العاصمة، بعد أن أخبرتها إحدى قريباتها بوجود عمل لها في

إحدى المكتبات الكبرى بجوار دراستها ومكان سكنها، ما كان عليها إلا القبول بأي عمل مناسب من أجل إرضاء طموحها.

جاء متأخرًا كعادته قبل أن يتحرك القطار بدقيقة واحدة، يحمل حقيبة خلف ظهره بطريقة طفولية، ملابسه تنم عن شخصية عملية جدًّا، رغم أنه من سكان العاصمة إلا أنه يرى بأن التعامل مع المظهر شيء تافه، وأن الجوهر أهم بكثير مما انعكس على طريقة لبسه الغير مهندمة، فن اختيار الملابس آخر شيء يفكر فيه، طبيب بيطري سافر إلى المدينة من أجل شيء يخص عمله.

يكره مداعبة أصدقائه له وبعض من الأقارب عندما يلقبونه بـ(دكتور البهايم).

حاول اختصارهم جميعًا بعد أن أحس بالراحة في وحدة، أخرج من جيبه تذكرته، محاولًا البحث عن رقم مقعدة الصحيح، وعندما عثر عليه وضع حقيبته بعنفٍ مبالغ في الدرج الخاص بحقائب المسافرين، ثم جلس أمامها، أخرج منديلًا ورقيًّا وبدأ يمسح وجه.

ما زالت تتطلع خارج النافذة، لم يودعها أحد، حاولت التحكم في دموعها، لكن هناك أشياء تحدث خارجة عن إرادتنا، انسابت الدموع من عينها، فحاولت ارتداء نظارتها الشمسية، فتحت حقيبتها وظلت تبحث عن منديل وسط أغراضها المتزاحمة،

لكن فشلت في الوصول إليها، كان يراها لكن وجد أن من الأفضل التصنع بأنه لم ينتبه لها، تأخرت في إيجاد المناديل، تلك المرة وبدون تفكير أو تردد وضع المناديل على حقيبتها دون أن يتفوه بكلمة، نظرت إليه من خلف نظارتها بتعجب،

ثم أردف بابتسامة صغيرة: «أعتقد أنكِ تبحثين عنها».

حاولت التحدث لكنه قطع كلامها متابعًا: «معي أكثر من علبة لا تقلقي».

ما كان عليها إلا أن تأخذ المناديل وتشكره، ثم تعيد النظر إلى الخارج مرة أخرى بعد أن كفكفت دموعها، وبغيظ تغمغم لنفسها «أكره الحديث مع الغرباء، أتمنى أن يمر بائع مناديل من هنا حتى أرد له علبة، أعتقد بأنني أبدو حمقاء أمامه، لا يهم مجرد ساعات وأصل ولن أراه مرة أخرى، استعيدي ثقتك في نفسك مجددًا عزيزتي فلا أحد يهتم لأمرك مثل نفسك».

ما زال يرمقها في صمت، ثم أمسك بهاتفة ليبحث عن أي شيء يأخذ فكره بعيدًا عنها، لكن دون جدوى، ما زال ينظر إليها من وقت لآخر بنصف عين «تُرى ما بها! وأي شيء جعلها تبكي بتلك الصورة، لا أرى أحدًا يودعها، ربما كانت مثلي وجدت راحتها في وحدتها، أو هي بالفعل وحيدة مرغمة، آه يا إلهي! لا أحب الحديث مع الغرباء، لكن هناك شيء جعلني أشعر بالمسؤولية تجاهها، أي

حديث أقوله لنفسي، حقًّا أبدو مثل الأحمق أمامها، سأحاول النوم قليلًا علني أخرجها من عقلي، على الأقل سأحاول التغلب على نظرات عيني لها، ساعات وأصل ولن أراها مرة أخرى».

بعد وقت نظرت إلى ساعتها بتأفف ونفاذ صبر «أكره السفر كثيرًا، والأوقات الكثيرة في الانتظار، لا بل أكره الانتظار نفسه»، ثم همت بالوقوف تنظر حولها باهتمام، قالت لها إحداهنّ بأنه يوجد في القطار بوفيه أن رغبتي في شيء، لكن دون قصد لمست حقيبتها قدميه، كان نائمًا، أو كان متصنعَ النوم، نظر إليها في تعجب ثم تلون وجهها وبخجل:

ـ آسفه لم أقصد حقًّا، عذرًا منك.

ـ لا عليك.

أعتدل في جلسته متسائلًا: هل تبحثين عن شيء؟

قالت بتلعثم: أريد فقط أن أعرف مكان البوفيه؟ أرغب فقط في تناول القهوة.

أنتفض من مكانه دون الالتفات إليها وبجدية: إذًا اجلسي مكانك وسأحضر لك أنا القهوة هنا، فأنا أيضًا أرغب في تناول كوب من القهوة.

نظرت إلى أثره إلى أن اختفى، فاغرةً فاهها، بتعجب ثم جلست مكانها تحاول إدراك ما يحدث.

أثناء توجهه إلى البوفيه تباطأت خطواته للحظة متعجبًا محادثًا نفسه: ماذا فعلت! ولِمَ لا أصف لها مكان البوفيه وأُنْهِي الأمر، أنا لا أحب أن أكون مسؤولًا عن أحد إذًا، لماذا هي!

ثم أكمل خطواته لجلب القهوة باستسلام مؤقت لتفكيره.

ما زالت في حالة دهشة عاقدة حاجبيها بتذمر لتضرب حقيبتها بكلتا يديها: أنتِ السبب!

ثم أعادت ظهرها للخلف باستسلام.

بعد دقائق وقف أمامها حاملًا بين يده كوبين من القهوة لينظر إليها بابتسامة واسعة:

ـ تفضلي قهوتك، عذرًا نسيت أن أسألك كيف تشربينها، أتمنى أن تكون مضبوطة؟

أخذت كوب القهوة بابتسامة عفوية:

ـ بالفعل أنا أشربها مضبوطة.

جلس مكانه وبدأ في شرب قهوته مع نظراتهما المتبادلة في صمت، ثم قرر أن يتحدث بعد صراع طويل مع نفسه، تكحكح بهدوء ليستعد للحديث:

ـ أنتِ من سكان المدينة؟

تململت في جلستها ثم أردفت وهي تنظر إلى كوب القهوة بخجل:

ـ نعم أنا كذلك.

ساد صمت لدقيقة قبل أن يبدأ في الكلام مرة أخرى:

ـ مسافرة العاصمة من أجل العمل أم الدراسة؟

ـ الاثنان معًا.

ـ رائع، أشعر بالحماس عندما أجد شخصًا طموحًا يبحث عن النجاح دون الالتفات إلى المعوقات في حياته، أعتقد إنكِ واجهتي تلك المعوقات؟

قالها بقصد حتى يرى ملامحها عند استقبالها سؤاله البغتة.

نظرت إليه بتعجب وضيق من تجاوزه ثم أجابت:

ـ لماذا قلت هذا؟ أنا لم أواجه أي معوقات في حياتي.

ثم نظرت إلى كوب القهوة لتعبث فيه بأناملها في شرود.

ـ أنا آسف لتجاوزي، لكن مدينة مثل مدينتك أعتقد بأن تفكير الأهل محدود بعض الشيء، ولن يتقبل أحد فكرة أن تذهب فتاة صغيرة في السن، وجميلة مثلك إلى المدينة، ومن أجل العمل والتعليم معًا، أنا أقصد هذا.

أردفت باستسلام:

نعم أنت محق، لكن والدي ووالدتي قد وافتهم المنية وأنا في سن السادسة من عمري، وتربيت بعدها في بيت عمي.

ـ أنا آسف حقًّا.

ـ لا عليك.

نظرت بعدها إلى الخارج مرة أخرى بعد وقت، ثم نظرت إلى يدها متذكرة جملة كتبتها لها إحدى المعلمات قديمًا بالقلم الجاف «لا حديث مع الغرباء».

لتضم بعدها كفيها بطريقه لا إرادية منها «ما كان أن أبادله الحديث، أنا المخطئة، كان يجب ردعه عند أول كلمة، لا أحب أن يتدخل أحد في شؤوني الخاصة، ولا أحب الحديث مع الغرباء، أكره هذا الشعور، وأكره إحساسي بالخوف، لكنني حقًّا أفتقد الاهتمام، لأول مرة أشعر بأن أحدهم مهتم لأمري، مهتم أن يسمعني، لكن دون جدوى أظن بأننا اقتربنا على الوصول، ولن أراه مجددًا».

ظل يرمقها من وقت لآخر منزعج من نفسه ومن تجاوزه في الحديث: «أعتقد بأنني وجب عليّ الاعتذار منها، لكن لا أظن بأنني قادر على أن أتفوه بكلمة مجددًا بعد الألم والإحراج الذي سببته لها، أكره هذا الشعور، وأكره نفسي الخائفة من الاقتراب، أشعر بأنني أعرفها منذ وقت، لكن ما الجدوى.. أظن بأننا اقتربنا على الوصول، ولن أراها مجددًا».

ـ هل ينتظركِ أحد؟

ـ لا أظن.

ـ إذًا هل تمانعين بأن أوصلك؟

قطعت كلامه بجدية:

ـ نعم بالتأكيد أمانع.

ـ أنا آسف، لقد تجاوزت حدودي، هل أخبرتك بأنني طبيب! تركت العاصمة وسافرت إلى مدينتك من أجل العمل، ممكن أن تقولي بأنني أيضًا مثلك وحيد في هذا العالم.

بدأ حديثه يجذب انتباهها.. يرغمها على الإنصات إليه باهتمام شديد، مصحوبة بابتسامة على فمها وعينيها التي يجذبها ملامحه عند الحديث، ابتسامة وقهقهته، حركة يديه التعبيرية أثناء الكلام، للحظة شعرت بالطمأنينة تجتاح قلبها، والراحة لأول مرة تشعر بها في حياتها.. إحساس بزغ الأمل داخلها، تعجبت من تفكيره الذي يشبه إلى حد كبير تفكيرها بعد أن يئست في إيجاد شخص يحمل جميع هذه المواصفات، نسيت لبعض الوقت ما كان مكتوبًا يومًا بيدها: «لا حديث مع الغرباء».

توقف القطار فنظر كلًّا منهم إلى الآخر بضيق، ثم أردف باستسلام وحزن:

ـ لقد وصلنا.

لم تجب عليه، استقامت من مكانها لتستعد إلى النزول، أخذ حقيبته مسرعًا للحاق بها، ليوقفها:

ـ ياااا!

تنبهت إلى ندائه ليجد عينيها تلمع كأنها تستعد إلى البكاء.

ـ نسيت أن أسألك عن اسمك.

ابتسمت ثم أردفت بنبرة حزينة:

ـ أماني، اسمي أماني.

أومأ برأسه بابتسامة صغيرة ليكرر الاسم خلفها بخفوت «أماني»، لكنها سمعته ثم تركته لتأخذ حقيبتها، بينما هو ذهب خلفها مجددًا:

ـ انتظري أنا سأحمل عنك الحقيبة إلى الخارج.

ـ لا أتركها هنا أنا سأهتم بهذا، شكرًا لك.

ثم توقفت للحظة تنظر إليه لتمد يديها لكي تصافحه.

ـ أظن بأنها النهاية ويجب عليَّ أن أذهب، سعدت كثيرًا بالكلام معك.

قطب جبينه ثم أردف:

ـ النهاية؟ ولماذا إذًا لا تقولي بأنها البداية، دعيني أقوم بتوصيلك، أو على الأقل اجعلي هناك تواصلًا بيننا، أشعر بأنني أعرفك منذ وقت طويل.

حملت حقيبتها وهي تردف:

ـ إذا كان لنا نصيب أن نلتقيَ مجددًا سنلتقي، لكنني ما زلت أخشى الاقتراب من الغرباء.

ثم تتركه ومضت، ليعلو صوته مرة أخرى:

ـ سنلتقي أعدك بذلك، أماني.

لينطق اسمها بخفوت حزين واستسلام قاتل.

بينما هي نظرت إلى كفها ثم ضمتها بشدة حتى انغرست أظافرها في راحة يدها.

تتمتم لنفسها بصوت خافت: «لا حديث مع الغرباء، لا حديث مع الغرباء».

ثم بكت لتختفي بعدها عن مرمى أنظاره.

عندما يتغلغل الخوف بداخلك تأكد بأنك ستضيع منك ألف فرصة وحكايات، إن بقيت ستغيرك إلى الأحسن، ستجعلك إنسانًا جديدًا، فلا تدع الخوف يتسلل إلى حياتك بل اقترب، جرب، حاول، فالاستسلام مرض يجهزك إلى اليأس إلى الموت البطيء.

«الحياة أجمل من أن تعيشها وحيدًا بين جدران خوفك».

شيرين ناز مجدي

- شيرين رضا
- ٣١ سنة
- اشتركت في مسابقة للخواطر والقصة تابعة لدار لوتس للنشر الحر، وفازت ثلاث خواطر وضمهم داخل كتاب للخواطر (قطرات منثورة)، وتم طباعته في معرض الكتاب ٢٠١٩، وفازت قصتي بعنوان (الصداقة) وطُبِعَتْ ضمن مجموعة قصصية وعُرِضَت في معرض الكتاب في إسكندرية.
- واشتركت بقصة قصيرة بعنوان (الصرخة) في مسابقة الإبداع لإقليم غرب ووسط الدلتا، وحَصلت على المركز الثالث.

إلى أمي التي لها كل الفضل في مساندتي وتحفيزي ولأستاذي العظيم، عادل الأمير الذي كان نعم المرشد والصديق والأب الروحي شكرًا له.

والشكر والتقدير لنادي أدب مدينة المحمودية ولتوجيهاته التي صعدت بي لمزيدٍ من درجات المعرفة والعلم شكرًا لهم وللشاعر/ أحمد الجندي.

كعكة باردة

اليوم أتممتُ الأربعين من عمري، أجلسُ على حافة نافذتي، أشاهد بعض الصبية، والفتيات وهم يحتفلون بعيدِ ميلاد أحدهم.

أنظر إليهم مبتسمة.. أتذكر متى كانت المرة الأخيرة التي احتفلتُ فيها بعيد ميلادي.

حينها لم يطرأ في ذهني أنني سأصل يومًا إلى هذا العمر، لقد كان هذا زمنًا بعيدًا عني، لم أكن أراه حتى في مخيلتي، فقد نازعتني تلك الرؤية وكأنها أشبهُ بحلم.

أتذكر أمي كيف كانت عندما وَصلت للأربعين، كنتُ أشعر بها خاوية، فارغة وكأن الحياة ألقت الحظَ العاثر أمامها، فكانت تسبق الحياة كل عام بألف عام.

لقد كبرت أمي، بعد رحيل أبي أصبحت تشيخ كل يوم.

صارت ترى تلك الشيخوخة فظة، ومباغتة، وكأنها جسدًا عاريًا يمتد فوقها، فتُدفن داخله حزنها العقيم.. رأيتها تكتسح ملامحها كلونٍ تتزين به..

فهي لم تكن ترغب بها، ولكنها أرادتها بشدة، فظلت تنمو أعلى جبينها، لتترك أثرًا على خديها العميقين، ولتُسرع مهرولة على وجههاِ فتتركها بجلدٍ منكسر وتجاعيدَ مشوهة.

والآن أنا أكره الأربعين، فذلك العمر مخيف، لم أكن مستعدةً لمواجهته.. فظللتُ أرى انعكاس صورتي في السادسة عشر، ذلك العمر الذي ما زالتُ أراه في مرآتي.

أستمعُ الآن لصوت الأطفال، وصياحهم يدوي في أذني.

تلك الطفلة ذات الجدائل الذهبية تُذكرني بنفسي عندما كنتُ في الثامنة من عمري.

كان عيد ميلادي الثامن، وموعد عودة أبي من رحلته.

أعدت لي أمي حفلة كبيرة، ودعت جميع صديقاتي.

زيَّنَت حديقة المنزل، واشترت لي زيًّا جديدًا.. كنتُ سعيدة تمنيتُ أن يظل عمري ثماني سنوات.

في تلك الليلة انتظرت قدوم أبي، فقد وعدني برحلة معه هديةً لعيدِ ميلادي.

بعد قليل رأيته يقف أمامي، حاملًا معه كعكتي، فقد كانت كعكة كبيرة.

أتذكر ابتسامته الجميلة، والتي ارتسمت على ثغرِهِ عندما صحتُ مهرولة نحوه «أبي»، ضمني إليه بشدة، وظل يحملني طويلًا متمنيًا لي عيد ميلاد سعيدًا.

نظرتُ إليه مبتسمة: اشتقت إليك كثيرًا.

ضمني إليه مرة أخرى هامسًا لي: وأنا أيضًا.

قام وأرخى يديه قليلًا ثم حمل كعكتي بين يديه ناظرًا حوله قائلًا: أين أمكِ؟

فأجبته: إنها في المنزل تعد لنا مزيدًا من الحلوى.

تركني وذهب داخلًا المنزل.

ظللتُ أراقبه حتى اختفى من أمام عيني، فعدتُّ لِلَّهْوِ مع صديقاتي، وجلسنا نمرح كثيرًا.

مر الوقت وأبي طال غيابه، وأمي لم تأتِ بعد.

فتوجهت إلى المنزل، أنادي عليه، ولكني لم أسمع صوته.. فوجدت كعكتي على الطاولة كانت لا تزال مُغلفة.

حينها سمعتُ صوت أنين أمي، فتوجهت نحو غرفتهما.

فتحتُ الباب، وإذا بأبي ينكفئ على فِراشه.

وأمي تجلس جانبه شاحبًا وجهها، عيناها تبكي بغزارة.

اقتربت منهما أكثر، وإذا بي أرى أبي يسقط أمامي، وعينيه تنظر نحوي.

كانت تلك النظرة الأخيرة التي نظر لي بها، فقد شعرتُ أنها باردة، سرقت مني حينها ذلك اليوم الذي كنت أَعُدُّ له حفلتي.

ما زال صوت صيحات الأطفال يدوي من حولي، وذلك الحفل أوشك على الانتهاء.

ولكن إلى الآن لم ينته حفلي بعد.

أنظر نحو السماء، تبدو ككأسٍ أزرقُ شاحب اللون.

تعكس بريقها داخل كؤوسنا لنرتشف منه لحظاتٍ تمر علينا، حاملة معها ذكرى.. ربما لليلة عيد ميلادنا.

كم كنتُ أتمنى أن أتناول قطعة من تلك الكعكة، فلقد صنعها أبي لي خصيصى.. لكن لا بأس سوف أسأل أمي من أين جلبها أبي؟

ولكن لا أعلم هل سيسمحون لي بزيارتها في تلك المصحة أم لا؟

ذكرى أم

على صوت تغريد العصافير تفيق هناء من نومها.

تفتح عينيها على أشعة الشمس التي تتغلغل من بين فتحات نافذة الذكرى لتُداعبها.

تقوم فتهندم ثوبها، تقف أمام مرآة العمر تنظر لنفسها كما تفعل كل يوم.. تتنهد الآلام.. فاليوم ليس بجديد وسوف تقضيه كما اعتادت في ظل جدار الصمت.

فهي تعيش وحيدة منذُ وفاة زوجها ورحيل أبنائها عنها في غربة روحها الموحشة.

قامت وتوجهت للمطبخ لتخبز أوجاعها على شعلةِ الفراق المؤلم.

تقبع داخله تُعدّ فنجان قهوتها، تقف وتتذوق بعض ذكرياتها وتشاهد براعتها في إعداد الطعام المفضل لأبنائها.

والآن صار المطبخ خاليًا من ضجيج أوانيه وشغب أبنائها.

وصار الحزن يجلس هناك في تلك الزاوية البعيدة.. شاهدًا على ذكراها الغائبة.

تحمل فنجان قهوتها.. تذهب وتجلس أمام نافذة الماضي لتلتحف بنسيم الهواء تحمل من أمامها ألبوم صور.

تمسك به تتصفحه لتسير ذكرياتها كسفينة بلا شراع لتعبر بها ثلاثين عامًا رست على ضفاف قلبها.

ذكرى زفاف ابنها وابنتيها وذكريات أحفادها.

تعود بظهرها للخلف تتنهد بداخلها الألم مرة بعد مرة من مر الفراق.

تُتمتم قائلة.. لقد طال غيابكم.

تستكمل رحلتها بين صفحاته المليئة بأفراح، وأعياد قضتها معهم ورحلتها في متابعة حياتهم.. واليوم هي وحيدة.

دق جرس المنزل.. قامت لتفتح وإذا بصديقتها علياء.

ترحب بها هناء ويتوجهان معًا إلى الداخل.

تجلس علياء على مقعد الذكرى المقابل لها تسألها عن أحوالها، وعن صحتها التي تراجعت مؤخرًا.

نظرت علياء لألبوم الصور.. أمسكت به وجلست تتصفحه.

نظرت لهناء بتنهد وحزن قائلة:

ـ هل ما زلتِ تتصفحين تلك الذكريات المؤلمة؟

رفعت هناء نظرها نحوها وعيناها تمتلئ بالدموع:

ـ اشتقتُ إليهم.

قامت علياء من مكانها واقتربت منها وظلت تربت على كتفيها قائلة: لا تحزني يا صديقتي فلعل يومًا يأتي ستعود فيه سفينتك مُحملة بذكرياتك الجميلة.

ـ التمس لهم العذر ولكن رحيلهم صار يقتلني.

حينها رن جرس المنزل فذهبت علياء وفتحت الباب.

وإذا بهناء تستمع لصوت ضحكات من خلفها لأبنائها الثلاث قائلين:

اشتقنا إليكِ يا أمي.

مصطفى الصايم

- مصطفى الصايم.
- يدرس بكلية الحقوق جامعة بني سويف.
- تعد قصة «هو» ثاني عمل مشترك له بعد قصته «الرحّالة» في المجموعة القصصية «أسرار ولكن» الصادرة عن دار (المثقفون العرب)، ولكنها فقط مُجرد بداية.

هـ ح. كل شيء جميل أفعله، أفعله من أجلك.

«هُوَ»

كبير هو.. عظيم جدًّا، ليس كأي شخصٍ عظيم آخر، إنما أعظم من أي شخصٍ عظيم آخر.. حنون هو، كالأمهات.. لا لا، لقد تخطى حنانه حنان الأمهات بكثير، لا يريد شيئًا سوى أن يساعد من يحتاج إلى مساعده، ويعطف على من يحتاج إلى عطف.

يعرف كل الناس ويعرفه بعضهم، يحبه كل من يعرفه.. من يعرفه بحق، ومن لا يعرفه بحق يرى منه شيئًا غير قابل للتصديق.

ذات يوم بنى بناء يأوي كل البلدة، بدون مساعدة من أحد، وبدون أن يطلب منه أحد، وبدون أدنى مقابل، لا يتطلب أن يكون للشخص صله قرابة به كي يساعده، غرق أحدهم في بحر وكاد أن يفتك به ولكنه أنقذه، كادت النار أن تضرم بأحدهم لولاه، قليل الظهور بين الناس، ولكنه مؤثر، مؤثر حتى في الأوقات التي لا يظهر بها، بإمكانك إن تأملت قليلًا –وبدون جهد– سترى تأثيره على كل ما يحيط بالبلدة.

في كل حقبة يكون له شخص يحاول أن يقنع الناس باتباعه، وإقناعهم أنه لا يريد شيئًا سوى سعادتهم، وهو حقًّا لا يريد شيئًا من أحد، ولكن يريده الجميع بالفطرة، عندما يمرض الشخص الذي يتبعه أو يموت.. بالأحرى أن يكون غير قادر على تكملة المسيرة، يظهر شخص آخر.

كان هناك شخص يدعى «سامي»، كان يحبه جدًّا وهو أيضًا يبادله الحب، سامي أب لثلاثة أولاد وابنتين، بدأ سامي هذا في إقناع الناس به، فرأى أن يبدأ من بيته، دخل بيته ذات يوم وقال لأولاده:

ـ ما سيقوله لكم نفذوه بدون أدنى مناقشه.

وافق اثنان من أبنائه وبنت من الاثنتين، قال له «ك» وهو أحد الرافضين لكلام والده:

ـ ولماذا أتبعه هو؟

رد والده بهدوء:

ـ لأنه الصحيح.

ـ ....

ـ لا تجادل وافعل ما أطلبه منك.

ثم أردف:

ـ وأنت يا «ب» ما سبب رفضكِ لما أطلبه؟

لم تعرف ماذا ستقول، ولكنها كانت تعلم جيدًا أن والدها لا يقول شيئًا إلا ويكون صوابًا، وتعرف أيضًا أن من يطلب منهم والدهم اتباعه هو من بنى لهم البناء الذي آواهم وساعدهم كثيرًا، ولكنها –ورغم ذلك– رفضت، رفضت لمجرد الرفض أو ربما كان رفضها هذا لم يكن سوى كبر.

خرج سامي من بيته متجهًا ناحيته، فوجده ينير مكانًا يعمل به بعض الفلاحين بكشاف كبير، فلما سأله لماذا تفعل هذا؟ قال:

ـ كي لا يغوصوا في الظلام.

فقال أحد الفلاحين مستنكرًا:

ـ لا، اذهب ودعنا نتولى أمورنا، باستطاعتنا أن ننير لأنفسنا.

قالها وأخرج كشافه وأناره، ولكنه كان كشافًا صغيرًا، فلم يستطيعوا أن يروا شيئًا.

فذهب هو وأخذ كشافه، وتركهم، ولكن قال أحدهم:

تعال، تعال، نحن لا نستطيع الرؤية بدون كشافك، ولكنه لم يرد وأكمل مبتعدًا.

فتبعه سامي إلى أن وصل إلى مكان يمكنه من رؤية هؤلاء الفلاحين، فقال له سامي:

ـ لماذا توقفت هنا؟

ـ لو أرادني أحد منهم فسوف يبحث عني.

ـ هم لا يعرفونك من الأساس، وسنفترض أن أحدهم جاء ليبحث عنك، هل ستساعده بعدما قال لك إنه يستطيع مساعدة نفسه ولا يحتاجك؟

ـ لو بحث عني أحدهم هذا معناه أنه في حاجه إليَّ؛ وأنا لن أرد شخصًا في حاجه إليَّ، فهمت؟

لم يرد سامي ولكنه قال بعد نصف ساعة لم يتغير فيها شيء:

ـ سأذهب أنا الآن، فأولادي في حاجه ماسه إليَّ.

سمح له بالذهاب وظل واقفًا في انتظار أن يبحث عنه أحد الفلاحين فيساعده ولكنه لم يحدث، حتى الصباح!

ذات يوم عرف أن سامي مات، فذهب لأولاده بعد أسبوع من وفاته، وقال لهم إن والدهم قد أوصى أن يتبعوه ويفعلون ما يريد، فقال له «ك»:

ـ قال والدي هذا قبل وفاته، ولكني لم ولن أوافق.

«ك» يعرف أن هناك شخصًا يستحق أن يتبع، ولكنه لا يعرف من هو هذا الشخص هل «هو» أم من؟ فيرفض اتباعه لحين التأكد من ذلك.

قالت «ب»:

ـ وأنا أيضًا.

قال هو محدثًا الباقي:

ـ وماذا عنكم؟

رد أكبرهم سنًّا وهو «م»:

ـ موافق.

ثم ردد كل من «س»، و«ي»:

ـ ونحن أيضًا موافقون.

قال:

ـ ستفعلون ما سأطلبه منكم، وبهذا سوف تغدو البلدة في أحسن حال.

صمتوا لدقائق ثم قال أكبرهم سنًّا:

ـ موافقون.

هكذا هناك بنت وولدان معه، وبنت وولد ضده.

بعد عدة أيام بدأ ينضم إلى فرقته أناس آخرون من البلدة، وبدأوا في تنظيف البلدة من كل شيء، وعلى الجانب الآخر بدأ آخرون ينضمون لـ«ك» و«ب»، وبدأت الأعداد تتزايد لدى الفريقين، من هم في فريقه كانوا لديهم العديد من الأسباب لاتباعه، ومن هم ضده كان لديهم أيضًا أسباب لفرضهم له.

ماتوا أولاد سامي كلهم واحدًا تلو الآخر، ولكن لم يمت موضوعهم، فمن كانوا يتبعوه جاء من بعدهم أناس يكملوا المسيرة، ومن كانوا يرفضوه جاء أيضًا من بعدهم من يعيش لرفضه وعدم اتباعه.

ومع تعاقب الأجيال، ووفود مؤيدون جُدد لكلا الفريقين، راح كُل فريق يقول إنه على صواب، وأن الفريق الآخر على خطأ، فبالنسبة لفريقه كانوا يقولون إنه هو من فعل كل شيء في هذه البلدة؛ فهو الذي بنى البناء الذي يحتمون به الآن، وهو الذي جعل البلدة في حاله جيدة، والفريق الآخر ينكرون وجوده من الأساس فيرددون:

ـ ماذا يثبت لنا أنه من فعل كل هذا؟ ألم يَكُن هذا محض صدفه؟!

فيجزم فريقه على أنه هو من فعل كل هذا ويجب علينا أن نسير على نهجه، وأخذت مشاكلهم في التفاقم.

لم يكن هذا هو ما حدث فقط، إنما نشبت التفرقة بين أفراد الفريق الواحد، فمثلًا، فريقه أصبحوا جماعات كل جماعة لها اسم يميزها؛ فهناك جماعة «م» وجماعة أخرى تدعى «س»، وأخرى تدعى «ي»، وكل جماعة منهم ترى أنها تسير على نهجه بالطريقة الصحيحة، أما الفريق الآخر نشب بينهم روح التفرقة، فجماعه «ك» ينكرون وجوده، وجماعة «ب» ينسبون ما حدث للقرية من تطور إلى آخر.

وأثناء هذه المعركة ظهر شخص غريب عن البلدة، لا يعرف أحد منهم ولا يعرفه أحد، ولكنه سرعان ما سمع عن مشكلتهم؛ فجلس مع فريقه وسمع منهم، وجلس مع الفريق الثاني وسمع

منهم أيضًا، وذات يوم حين اجتمع الفريقان في السوق، وقف هذا الغريب وقال بعلو صوته حتى يسمعه الجميع:

- لن أتكلم عمّن منكم على صواب ومن على خطأ، ولكن كل ما يمكنني قوله إن هناك أشياء عدة قد فُعِلت، هناك أشياء قد وجدت.

صمت لبرهة، ثم أكمل:

- فعليكم أن تتجردوا من كل انتماء، وأن تبحثوا حتى تعرفوا الواجد.

وائل جاد ‹اللامنتمي›

- وائل جمعة جاد
- مواليد كفر الشيخ عام ١٩٨٣، درست العلوم الطبية البيطرية بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٥م.
- شاركت من قبل في مشروع المائة كاتب الجزء الثاني برسالة أهديتها إلى والدي الذي رحل عني قريبًا وترك لي عالمًا.

أهدي هذا العمل إليه، وذلك لأنني وعدته أن أهدي له أعمالي.. وإلى الأصدقاء الذين ما زالوا يدفعونني إلى الأمام ويشجعوني.

تذكرة ذهاب بلا عودة

كل عام وأنت بخير، والسنة القادمة بأمر الله تكون مع حفيدك الأول.

هكذا أنهى المدير الطبي لمستشفى «الأمل» الكلمة الختامية للحفل المقام على شرف د. أحمد بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده الواحد والستين، والذي يصادف آخر يوم عمل له بتلك المستشفى الذي عمل به أكثر من ثلاثين عامًا، وسيستقل غدًا طائرة الساعة الرابعة إلى البلد الذي قدم منه أول مرة.

بعد الحفل بدأ يحزم أمتعته وينقّحها، ويتذكر هل نسي شيئًا من مقتنياته.

فيرد عليه خالد صديق غربته ورفيق دربه: «يا سيدي لو فيه حاجة مجتش معاك هبعتهالك بالشحن على حسابي».

ـ »يا سيدي هو موضوع حسابي وحسابك، أنا بس مش عايز أسيب حاجة هنا».

رد أحمد: خلاص كده كله تمام.

- بحول الله يلا بينا.
- متنساش تبقى تدي نسخة المفتاح اللي معاك لصاحب السكن.
- فاكر أنت اديتني النسخة دي إمتى؟
- طبعًا فاكر من سبع سنين بالضبط، بعد ما جتلي الأزمة القلبية، وقلتلك إنت اللي هتفتح عليا لو مُت لوحدي.
- يا سيدى أهو أنت زي الفل أهه، كانت أزمة وعدت، وأهو أنت راجع لعيالك.
- أنا مش عارف يا د.أحمد، أنا هكمل السنة اللي جايه دي من غيرك إزاي؟

دخل الرفيقان المطار الساعة الثانية ظهرًا، وقام أحمد بعمل إجراءات السفر، وودّع (خالد) وغاب بين الأنظار ليعبر الجوازات والتفتيش ليصل بعدها إلى صالة الانتظار القريبة من بوابة الصعود للطائرة.

بعد النظر إلى اللوحة، وجد أن عنده ساعة قبل موعد الصعود، وتذكر أنه لم يذق طعامًا منذ أمس، ذهب إلى الكافيتريا، وطلب بعض الشطائر التي سوف تكون جاهزة خلال عشر دقائق، ذهب إلى أقرب حمام ليحقن نفسه جرعة الأنسولين ليعود ليتناول وجبته.

بعد أقل من خمس وأربعين دقيقة صعد إلى الطائرة، وأشارت المضيفة إلى المقعد الذي كان بانتظاره، وبعد قليل بدأ يستمع إلى تعليمات الأمن والسلامة المعتادة التي يسمعها مرتين على الأقل كل عام، وكان يرددها تلقائيًّا دون أن يشعر.

بدأت أنفاسه بالتسارع ليتنفس أكثر من هواء هذا البلد الذي اعتاد أن يستنشقه بحلوه ومرّه.

بدأ الكابتن بإعطاء تعليمات لملاحي المقصورة، وهو يعرف هذه الجملة جيدًا:

Cabin crew please take your seats for take off

أغمض عينه واستسلم للنوم، وبدأ يرى في منامه شريط ذكرياته، فعادت به الذاكرة إلى الخلف بعيدًا؛ حيث تذكر ذلك اليوم الذي زُفَّت إليه بشرى طباعة تأشيرة السفر على جواز سفره، وكيف كانت عينه تلمع من الفرحة كأنها تضيء له طريقه ليذهب مهرولًا إلى والده:

- بابا بابا.
- نعم يا حبيبي.. إيه الفرح دا كله؟
- أخيرًا يا بابا أخيرًا.
- الباسبور جه ولا إيه؟
- أيوا يا بابا، أخيرًا خلاص هسافر.. ربنا يقدرني واسعدك أنت وماما.

- ربنا يسعدك يا حبيبي.

وبدأ يتمتم بكلمات بينه وبين نفسه بدعوات أن يحفظ الله ولده، ويرده إليه سالمًا غانمًا، وهو يداعب شعره ويتحسس الشيب فيه.

وتذكر أول رحله طيران أقلّته إلى هذا البلد الذي يغادره الآن؛ حيث إنها كانت صعبة بالنسبة له، لأنها كانت أول مرة يستقلّ فيها الطائرة، واستسلم فيها بالنوم، والابتسامة لا تغادر شفتيه.

- هي الطيارة هتوصل الساعة كام؟ يا رب تكون في معادها ومتتأخرش.

سألت الشابة الخمرية ياسمين أخاها، وهي تسارع خطواتها.

- إن شاء الله تيجي في معادها. رد الأخ محمود.

- أنا مبسوطة أوي إننا هنعيش مع بابا تاني زي زمان.

محمود شاب في بداية عمره قدم طلبًا إلى الجامعة لتأجيل حفل تخرجه من الكلية أسبوعًا لحين عودة والده، ونظرًا لتفوقه في الدراسة منذ أن التحق بها منذ خمس سنوات، وافقت الجامعة على هذا الطلب، وتم تأجيل الحفل ليصبح غدًا بأمر الله.

اضطر محمود لمغادرة بلد إقامة الوالد للدراسة بالجامعة، وأساتذته يعلمون غياب الأب فترة الجامعة.

وأما ياسمين أو ياسمينا كما كان ينعتها أبوها منذ الصغر أو زهرة الربيع، كما كان يدعوها تارة أخرى، فقد انتقلت هي ووالدتها منذ ثلاث سنوات للعيش مع أخيها أيضًا لظروف الجامعة؛ حيث إن الدولة التي يعمل بها الوالد لا تسمح لغير المواطنين بالالتحاق بالجامعات الوطنية إلا في أضيق الظروف، فاضطرت للموافقة على العودة متمنية العودة إلى أحضان أبيها بعد الدراسة مباشرة.

ابتسمت الأم للحوار الذي دار بين ياسمين ومحمود، وتحدِّث نفسها بأنه قد حان الوقت ليجمع الله شتات الأسرة الصغيرة بعد الفرقة، وستقضي مع أحمد زوجها ما تبقى لهم من أيام في الدنيا.

فتح أحمد عينيه على إحدى فتيات طاقم الطائرة، وهي تسأله عن نوع الطعام الذي يودّ أن يتناوله. فطلب وجبته وبدأ يأكلها ببطء، وأخذ يتذكر آخر حوار بينه وبين خالد وهو يتحسس نسخة المفتاح التي لم يتركها.

أكل وجبته وهو يحاول استعادة شريط ذكريات رُفقته، أخذته هذه المحطة إلى رفقاء دربه في المستشفى وضحكاتهم.. خروجاتهم.. لعبهم.. ومحنهم.. فلتت دمعة من عينه حاول أن يمسحها من على وجهه، فتحسس التجاعيد التي على وجهه، وغطَّ بعدها في نوم عميق.

استيقظ على ابتسامة المضيفة، وهي تؤكد ربط حزام المقعد؛ لأن الطائرة أوشكت دخول الأجواء الوطنية، وقاربت على الهبوط، فابتسم أنه لم يقم بفكّه أصلًا، واستطرد قائلًا: إنها تشبه ابنته التي تنتظره في المطار اعتدل في جلسته متهيئًا للهبوط.

ـ إيه يا محمود! هي الطيارة اتأخرت ولا إيه؟

ـ مش عارف يا ياسمين.

تعلن الخطوط الوطنية عن وصول رحلتها رقم987 عبر بوابه رقم 7 ب.

ـ وصلت.. هي دي الرحلة، والركاب بدأت تخرج.

أخذ الثلاثة يطالعون في وجوه الركاب القادمين من البوابة، والانتظار يأكل مشاعرهم.

مرَّ الوقت، وبدأ القلق يتسرب إلى قلوبهم، ويأتي صوت في السماعة عبر الصالة: «على عائلة الدكتور أحمد الذهاب إلى الاستعلامات للأهمية».

هرول الثلاثة إلى الاستعلامات، ونبضات قلوبهم تكاد تسبق خُطَاهم، وعند الموظف المسؤول أخبرهم بأن روح د. أحمد أبت أن ترجع إلى هذا البلد ثانية، وأنه قد وافته المنية بمجرد ملامسة

الطائرة أرض المطار، وأنها ظلت هناك حيث قضى شبابه ولم يعد إليهم إلا جسده لكي يُوَارَى الترابَ بجوارهم؛ ليزوروا قبره ويخبروه بآمالهم التي قد تحطمت في المطار يوم كانوا ينتظرون.

شمس عجلان

- شمس ناصف محمود عجلان
- 23عام
- كلية الهندسة ببنها قسم هندسة مدنية
- كتابة الشعر والخواطر والقصص القصيرة والروايات
- يمكنكم متابعتي على موقع التواصل الاجتماعي فيس بوك من خلال صفحتي (كتاباتي ل شمس عجلان).

أهدي هذه القصة القصيرة لكل من أهمته الحياة وأوصلته إلى درجة عالية من الاكتئاب والعزلة، فلا شيء يستحق ما تفعلوه بأنفسكم، فقط ابتسموا وأتمنى لكم جميعًا مستقبلًا يشبه أحلامكم.

وأهدي هذه القصة أيضًا لوالدي –رحمه الله– فقد كان لي دومًا نعم السند والداعم، وأهديها لوالدتي التي كانت وما زالت وستظل بإذن الله مصدر كل شيء جميل بحياتي، وأهديها لإخوتي جميعًا وأتمنى لهم التوفيق والسداد في كل خطوات حياتهم.

خيالات الوحدة

كان سعيد يمثل حالة فريدة ومثيرة للاهتمام بالنسبة لي، على الرغم من تشابهنا في كثير من الأمور، حتى في الاسم نفسه، وفي حالة الوحدة التي يعيشها كلانا، إلا أنه لفت انتباهي بصمته المطبق وهدوئه التام، فلم أره يتحدث إلى أي شخص ولو لمرة واحدة.. كانت غرفته مواجهه لغرفتي على سطح ذلك المبنى نصف المتهدم، ولم تكن حالتي المادية السيئة تسمح بأكثر من هذا، وبالتأكيد حالته لم تكن تختلف عن حالتي كثيرًا..

كنت أسعى في البداية إلى الصحبة الآدمية معه، فمعارفي شبه معدومة، وأصدقائي لا وجود لهم، ولهذا بدا أن الحصول على جار يمكن أن أتحدث معه أو أشاركه أفكاري ليس بالأمر السيئ أبدًا.. وكم من مرة حاولت التحدث معه، ولكنه في كل مرة أبدأ معه حديث كان يظل صامتًا هادئًا! كأنه أصم أبكم، حتى تحيتي له في لقاءاتنا العابرة على السلالم أو على سطح البيت لم يكن

يرد عليها ولا يلتفت لي، ولكني سمعته مرة يتحدث عبر الهاتف إلى أحدهم، الذي حدث هو أنني حاولت أن أجري اتصالًا بأهلي في قريتي الصغيرة التي تركتها منذ سنوات بعيدة؛ بحثًا عن لقمة العيش في مكان أفضل، ولكن لم أصل للوضع الذي تمنيته لذاتي، وفى محل البقالة وجدت (سعيد) هذا يتحدث بصوت خافت مع شخص ما على الطرف الآخر، حاولت استراق السمع، ولكنه عندما انتبه إليَّ أنهى المكالمة على الفور، ثم هرول بخطوات سريعة في اتجاه المنزل..

وهناك بدأت بذرة الشك تنبت في داخلي وأعماقي، بالتأكيد هناك سر يخفيه هذا الرجل، صحيح أنه ليس من حقي الاطلاع على أسرار غيري، لكن الفضول هو سمة البشر التي صنعت تقدم الإنسانية!

وما كان يفعله سعيد ليلًا زاد من خوفي وذعري، أصوات دق وصراخ، وكأن هناك من يتشاجر معه.. ولكن في تلك الليلة بالتحديد كان الأمر مختلفًا، كنت صاعدًا إلى غرفتي في وقت متأخر من الليل، سمعت خطوات تتردد في بئر السلم، وعندما نظرت إلى الأسفل وجدت (سعيد) صاعدًا وهو في حالة مزرية، كمن تعرض لعمل شاق أو للضرب المبرح!

كنت في حالة صعبة أنا الآخر، لقد كان يومًا شاقًّا، وبالتأكيد هيئتي لا تختلف كثيرًا عن هيئته، لذا أسرعت إلى غرفتي وأغلقت بابها جيدًا.. إلا أنني لم أستطع النوم أبدًا في تلك الليلة، ظللت

أراقب غرفته من خلال زجاج نافذتي المكسور، لم أستطع الرؤية جيدًا، لكنني لاحظت أنه بعد فترة أطفأ نور الغرفة، وأشعل شمعة صغيرة تقريبًا وراح ظله يذرع الغرفة جيئة وذهابًا.. وهذا ما زاد من قلقي واضطرابي ناحيته أكثر، فوجدت نفسي أنا الآخر أذرع الغرفة مشيًا، ونمت وفي عقلي عدة وساوس شيطانية لم أستطع التغلب عيلها رغم محاولاتي الكثيرة، لماذا لا يكلم أحدًا؟ لماذا يعود متأخرًا في تلك الهيئة المزرية؟ لماذا لا أحد يتحدث عنه في منطقتنا؟ هناك شيء ما خطأ..

هناك شيء ما وعليّ أن أعرفه.. وقُبَيْل الفجر بدقائق انفتحت غرفته، قبل أن يغادرها بخطوات متثاقلة كأنه يؤدي واجبًا ثقيلًا على النفس.. سأتبعه وأصارحه بما يدور في عقلي..

لم أتردد لحظة وأنا أفتح باب حجرتي، قبل أن ترتجف أعصابي مرة أخرى، ماذا لو كان هذا الفتى لا يمت بصلة إلى عالم البشر؟ فكرة صبيانية.. أليس كذلك!

حسنًا، لقد دارت هذه الفكرة بعقلي في تلك اللحظة، ولكنني سرعان ما طردتها من عقلي، وأنا أتبعه بخطوات متثاقلة بطيئة، وقد أحسست بالعبء النفسي الرهيب يثقل جهازي العصبي.. وتبعته.. من شارع إلى شارع، ومن زقاق إلى زقاق، كان يدور في دائرة كبيرة، ويعود كل مرة إلى نقطة البداية، لكنه لم يلتفت مرة واحدة وراءه ليراني في أثره، ولم ألتفت أنا الآخر ورائي؛ لأنني

كنت متابعًا لكل خطوة يخطوها، وكل همسة يصدرها من بين أنيابه نتيجة البرد القارس..

وفي النهاية غيَّر مساره وخطا إلى زقاق ضيق كنت أعرف أن نهايته مسدودة وبلا شوارع جانبية.. ولكنني تبعته بإصرار، وفي الزقاق ظللت واجمًا لدقائق عدة، وأنا أنظر إلى الزقاق الموحل الممتلئ بأكياس القمامة وروث الحيوانات.. كان الزقاق خاليًا تمامًا، أين ذهب سعيد هذا؟ لا أعرف.. لقد اختفى.. إنه.. إنه...!

ولم أتوقف ولو للحظة عن الجري، حتى وصلت إلى غرفتي، وهناك التقطت أنفاسي بصعوبة، وظللت أرتجف في رعب حتى بدأت أضواء الصباح الأولى تهل، وفي النهاية غلبني الإرهاق والتعب فنمت، وأنا أدعو الله أن يمر اليوم على خير..

استيقظت ظهرًا، وعلى الفور هببت إلى نافذتي لأطالع كابوسي الجاثم على روحي، لكنني هذه المرة رأيت مشاهد مختلفة، كان صاحب المنزل ومعه اثنان من أبنائه ينظفون الغرفة ويخرجون عده أشياء قديمة مهلهلة منها، لم أستبعد أنها أشياء ذلك الـ «سعيد»، وقد طرده صاحب المنزل بعدما عرف أخيرًا ما هو ذلك الشيء.. حسنًا لا بد أن أصارحه بما حدث بالأمس.. خرجت من غرفتي وتوجهت إليه، فبدا التساؤل على وجهه ووجوه معاونيه على السواء!

تنحنحت بحرج قبل أن أقول: أهي متعلقات سعيد؟

قال صاحب المنزل باستغراب: أي سعيد!

قلت بسرعة: ذلك الرجل الصامت الذي سكن الغرفة من أسبوع، كان يدعى (سعيد)!

قال صاحب المنزل في ترقب: ماذا عنه؟!

قلت بنفس السرعة: لقد رأيت أشياء غريبة منه، إنه يعود كل يوم في ساعة متأخرة وفي حالة مزرية، ويغادر في أوقات غير معقولة، ولا يحدث أحدًا أبدًا ولقد تبعته بالأمس...

ولم أستطع أن أكمل حديثي، وأنا أرى علامات الدهشة والاستغراب ترتسم على وجوه الثلاثة، **قبل أن يتساءل أحدهم:** ومن أين عرفت أن اسمه سعيد؟

فكرت قليلًا ولم أجد أي إجابة شافية، ولكنني لم أجد لهذا السؤال جانبًا محوريًّا في الأمر، **قال صاحب المنزل بدهشة:** أنا لا أعرف أي وحيد غيرك، ولم يسكن أحد هذه الغرفة منذ سنوات، وأنت هو من يأتي متأخرًا، ويغادر في أوقات غريبة، وأنت الذي لا ترد التحية عندما تلقى عليك، أنت تتحدث عن نفسك يا رجل..

قال أحد أبنائه مصدقًا: الحق هو ما يقول!

ابتلعت ريقي بصعوبة، قبل أن أتركهم وأعود إلى غرفتي، وهم يضربون كفًّا بكف! أي لعبة حقيرة تلك التي يلعبونها.. بالتأكيد هناك مخطط ما يحيكونه ضدي، عليَّ أن أخذ الحذر في الأيام القادمة، وأراقب ذلك الـ «سعيد» جيدًا وربما يكون رد فعلي عنيفًا في كل الأحوال! عدت لغرفتي ثم قمت بإعداد الفطار وأنا

شارد الذهن أفكر في كل ما حدث معي بسبب سعيد هذا، ولم أصل لشيء جديد، فقررت الذهاب إلى عملي رغم أن الوقت كان مبكرًا، فأنا أعمل عامل في أحد مصانع البلاستيك التي طالما تمنيت أن أمتلك إحداها، وفي مكان العمل فجأة ظهر لي سعيد، وهو يتحدث بصوت هامس مع زميل لي، حاولت أن أعرف ماذا يقولون ولكن لم أصل لشيء، فقررت انتظار رحيل ذاك السعيد ثم محاولة معرفة الحديث الذي دار من زميلي العامل فهو أيضًا صديقي.

وعندما ذهبت لاستطلاع الأمر من زميلي **قال لي باستغراب:** عن أي رجل تتحدث؟! **قائلًا:** أنا هنا منذ الصباح الباكر أقف بمفردي ولدي عمل كثير، ولا أريد الحديث مع أحد عن أي شيء، **ثم عاد لاستكمال عمله وتركني في حيرة شديدة وضيق أتسائل:** لماذا ينكرون وجود ذاك السعيد عني! ثم تركت عملي مبكرًا ذاك اليوم بسبب عدم قدرتي على التركيز في أي شيء عدا سعيد، ومشيت هائمًا على وجهي في الشوارع لا أعرف أين سأذهب، فأنا لا أريد العودة إلى غرفتي مرة أخرى قبل معرفة كل ما يخص ذاك الـ «سعيد»، ثم قررت الذهاب إلى أحد أصدقائي القدامى، ربما يستطيع تفسير كل ما يحدث معي، وربما يساعدني ويجد لي بيتًا آخر لكي أسكنه، وأترك ذلك المنزل الغامض، صديقي هذا أعرفه منذ المدرسة الابتدائية وأستمر معي حتى انتهاء مرحلة الدراسة قبل الجامعية، ولكنه التحق بكلية الطب وتخرج

منها، وأنا التحقت بكلية الهندسة كما أردت ولكني فشلت في التخرج منها للأسف الشديد، ثم تخصص صديقي هذا في مجال الطب النفسي وذاع صيته، خاصة بعدما أصبح يظهر في برامج تلفزيونية عديدة، وطالما عرض عليَّ المساعدة دون أي مقابل من أي نوع تقديرًا لصداقتنا الطويلة، وعندما وصلت عيادته انتظرت قليلًا حتى يحين دوري في الدخول له، وعندما دخلت غرفته استقبلني بسعادة كبيرة ورحب بي بطريقة رائعة أسعدتني كثيرًا، وبدأنا الحديث عن ذكريات الماضي والمدرسة والزملاء وحدثني أيضًا عن زوجته وأبنائه، وسألني عن عدم زواجي حتى الآن، ولم أجد سببًا واضحًا أجيبه به سوى أنني فشلت في هذا الأمر، كما فشلت في دراستي وفي المحافظة على ما ورثته من أبي من أموال وعقارات لي ولأخوتي، وفشلت أيضًا في عمل أصدقاء جدد بعد انتهاء مرحلة التعليم الثانوي، تركني صديقي أتحدث حتى بدأت في البكاء بشدة، ولم يطلب مني التوقف عنه، **بل قال لي:** من الجيد أن تبكيَ فسوف يجعلك هذا شخصًا أفضل نفسيًّا.

واستطرد قائلًا: لكل شخص خلقه الله نصيب ورزق من الدنيا، وربما أنت رزقك ليس في الأموال والزواج والأبناء، ليس الحياة هكذا فقط، بل هناك أرزاق أخرى معنوية، مثل الرضا وراحة البال والسعادة.

فقاطعته قائلًا بنبرة ضيق واضحة: حتى راحة البال تلك غائبة أيضًا عن حياتي..

ثم بدأت أشرح له حكايتي مع «سعيد»، وكان هو يستمع لي جيدًا ويدون بعض الملاحظات تقريبًا، فلا أعرف ماذا كان يكتب بالضبط، ولم يقاطعني وأنا اتحدث، بل تركني حتى تعبت أنا من الحديث والشرح بدقة، **ثم سألني:** هل بيني وبين صاحب البيت خلافات، وكذلك بيني وبين زميلي في العمل؟ **فأجابته:** لا إطلاقًا، بل علاقتي مع الجميع جيدة، فأنا لا أختلط بأحد بشكل زائد عن الحاجة، مما يسبب لي المشاكل.

ثم قال صديقي الطبيب خالد: أعتقد أنك تعاني من إحباط واكتئاب حاد، وصل بك إلى درجة الاضرابات السمعية والبصرية، وكل هذا بسبب عدم شعورك بالرضا عن حياتك، وما حققته فيها والاعتراض على إرادة الله، أنت تحاول في عقلك الباطن أن تجد لك شخصًا فاشلًا جدًّا من وجهه نظرك تتخذه صديقًا لك، وتحاول إظهار ذاك الشخص بأسوأ صورة ممكنة حتى تقنع نفسك أنك أفضل منه، وأن هناك من هو ضائع وتائه في حياته أكثر منك، أنت تحاول خلق صورة لنفسك في الواقع بل أقبح، لذا تبتعد دائمًا عمَّن حولك في حياتك؛ لأنك تخشى دومًا شعورك بينهم أنك أقل منهم، يجب عليك الانخراط في الواقع والتقرب من الذين يودون التقرب منك، لا تتهرب من واقعك ولا تخلق لنفسك عالم افتراضي، بل الأفضل أن تتقدم في حياتك باستكمال دراستك والتدرج في عملك مثلًا.

سمعت هذا الكلام ولم أكن أعرف بماذا أرد وكيف أدافع عن نفسي، **ثم فجأة انتبهت وصديقي يقول:** لا تيأس، الفرص موجودة طالما حياتنا قائمة، ثم رددت عليه بوعده أن أحاول وأبحث عن كيفية استكمال دراستي مرة أخرى وأسعى إلى مكانة أفضل لي، خرجت من العيادة وأنا بداخلي رغبة كبيرة في تحدي نفسي لتحقيق ذاتي، خفت أن تهبط تلك الرغبة إذا انتظرت صباحًا من أجل الذهاب للجامعة ومحاولة استكمال دراستي، لذلك ذهبت فورًا إلى الجامعة وتحدثت إليهم في شؤون الطلاب وشعرت بفرحة أفتقدها منذ زمن طويل، حينما علمت بترحيبهم بي حتى أنهي دراستي، وفي ذاك اليوم عدت إلى البيت وبحثت عن صاحبه بنفسي لأعتذر له عن حديثي من قبل، **وبالفعل تحدثت مع الرجل قائلًا له:** أعتقد أنه كان حلمًا سخيفًا، كان الرجل يشعر باستغراب مني، لكن مر الموقف وصعدت إلى غرفتي وأنا أفكر فيما قاله صديقي الطبيب، وهل سأستطيع التغلب على تلك الخيالات أم لا! وهل سأقابل ذاك السعيد مرة أخرى أم لا!

عمر محمود عبد الحليم

- عمر محمود عبد الحليم
- الفيوم
- طالب جامعي

إهداء إلى..
الغـائـصين في بـحـار
الانجذاب والجمال،
الباحثين عن حلاوة
العشق وحور اللآلئ؛
إنَّ تحتَ البحرِ نارٌ..
إهداء إلى..

لَيْـــلَى

في إحدى قرى ضواحي بيروت.. أو ما يسمونها الضّيْعَة.. عند صديقي حسن في منزله، أقف ناظرًا من الشرفة وأشرب القهوة.. كسيئ عادتي.. ساعة الأصيل منتصف الخريف الراكد.. في هذا الجو المكتئب أراقب فتاة في مقتبل عمرها انجذبت إليها مذ رأيتها للوهلة الأولى عند نزولي الضيعة، راقتني بشرتها البرونزية، وعيناها البنيتان وشعرها الجاف، وأيضًا ملابسها الذكورية التحررية.

لك يومان وثلاث ليلات تراقبها.. ماذا دهاك؟ أتُعجب بفتاة وتتعقبها لمجرد بشرتها البرونزية وملابسها التحررية! منذ متى وتشغل البنات عقلك!

ظلت نفسي تعاتبني طيلة ليلتي، ولكني أراها منصفة.. «منصفة؟! هل أصبحت حقًّا ذلك الكائن الذي يتعالى بذاته أن يعجب بفتاة؟ لست أدري»! وبينما تنازعني نفسي، إذ بصوت حسن صاعد من الطابق السفلي: ألن تنام يا صديقي؟!

- كم الساعة؟
- الساعة 2؟
- (مغمغمًا).. سأنام.

ألقيت جسدي على السرير بعد أن طلبت من حسن إطفاء المصباح. في هذا الظلام أسندت ظهري إلى الحائط ناظرًا إلى الشرفة متذكرًا ما حدث طيلة الليالي الثلاث التي أقضيها في بيت حسن، ذلك البيت المكون من طابقين مرتفعين يعيش أبو حسن وأمه وأخته في الطابق السفلي، ويجلس حسن في الأعلى وحده، يجلس ويدرس وينام في هذا الطابق أو هذه الصومعة الجميلة ذات الشرفة الواسعة المطلة على منزل جيرانهم.

عشرون بيتًا –أو يزيدون– مرصوفون كامتداد لنهاية الضيعة، بعضهم يتخذ حديقة صغيرة محاطة بسور قصير، وكانت هذه حال بيت الفتاة برونزية البشرة. فمنزلهم الصغير المجاور لبيت حسن أمامه نبتات صغيرة تشبه نجيلة الملاعب وعلى يسار هذه النبتات زُرعت بضع وردات ملونة، وعلى يمينها شجرة يتيمة متساقطة الأوراق. وفي نهاية المنزل إلى اليسار تقع غرفتها بنافذتها الواسعة التي تقف عندها وتبدأ في الرسم. إنها رسامة.. ما أجملها!

«لقد أتعبتَ كتفيك وظهرك، اعتدل وارقد». أرسل عقلي إلى جسمي هذه الرسالة ليقطع بها عليَّ تفكيري، فاستلقيت راقدًا وأغمضت عيني عسى أن ينال النوم مني. متقلبًا على السرير لساعة أُمنّي نفسي بالنوم وعقلي يأبى. فقمت والتقطت سيجارة من علبة

حسن وأشعلتها.. «أين هذا الإحساس الرائع الذي يتحدث عنه مدمنو النيكوتين؟ أم لأني لم أعتَد التدخين»! على أي حال عدت إلى السرير ثانية: «لا بد أن أنام هذه الليلة».. فأغمضت عينيّ شاعرًا أني أنام.

صوت الدراجة البخارية قطع نومي.. هذا الصوت الذي طالما كرهته لِما يثيره من ضوضاء مزعجة.. فقمت منتفضًا ناحية الشرفة.. نعم إنها هي.. لقد أدركت الآن معنى أن «هناك أشياء نكرهها لكننا لا نستطيع تغييرها فتظل حتى نألفها ثم نحبها» إني أحببت هذا الصوت.

لكن أين تذهب الآن؟ إنها الخامسة، لم تشرق الشمس بعد!

عادت بعد 24 دقيقة، وما زلت واقفًا بالشرفة. «إن الجو بارد.. أغلِق النافذة أو ارتدِ شيئًا».. هذا ما خاطبني به عقلي، لكن نفسي تأبى الاستجابة. فقدميّ تصلبتا بالأرض وذراعيّ تحجرا وراء ظهري.. وصدري يتنفس الصقيع ولا يُبالي.

دخلتْ بيتها ثم أُضِيء نور غرفتها لكنها لم تظهر، ثم أتت بكرسي تحمله ووضعته أمام نافذتها ووضعت أمامه اللوحة. إنها متخففة من ثيابها، أستطيع أن أرى أطرافًا شتى من جسدها المسكِر. «اتق الله، غُضّ طرفك. تقتحم على الناس خصوصيتهم، وتنتهك حرمتهم». كنت أتوقع أن هذا ما ستزجرني به نفسي، لكنها لم تفعل.

عجبًا! هل حقًّا أشعر أني أملكها، وأنها ليست محرمة عليّ؟ هل أحببتها؟ أم ماذا؟ أين وازعي الديني والأخلاقي؟

ـ لقد ذهب مع الريح.

كانت هذه إجابة عقلي عليَّ التي لم أُرِد فهمها، فلدي ما يشغلني. وما تلك اللوحة التي ترسمها! حقًّا إن كل إبداع يشبه مُبدِعَه. وجه فتاة يتألق الحسن فيه، بقرطها الطويل وخاتمها الذهبي، واضعة أصابعها العشرة على خديها.

صوت نحنحة وأقدام تطأ سلم منزل حسن.. يا لِهذا السلم الذي يخرجني من أجمل عوالِمي! وينادي: استيقظ يا حسن.. إنها السابعة!

فانتفضت وهممت بإغلاق الشرفة، يا لِحظي التعيس لقد أصدرت صوتها الضوضائي، فالتفتت الفتاة إليَّ ورأتني. ما أجمل ابتسامتها اللطيفة! أدركت الآن بلاهة السعادة.

كل شيء كان يمشي بالتصوير البطيء عدا طرقات أخت حسن ونداءاتها. أقفلت الشرفة متجهًا إلى الباب؛ لأفتح لها وكأني أهوى من السماء فتخطفني الطير أو تهوي بِيَ الريح. «أخت حسن! اسمها سمر» وما الداعي إلى تذكر اسمها الآن!

ـ صباح الخير. (بادرتني هي بالتحية).

ـ صباح الخير.

ـ الفطور جاهز.. أبلغ حسن.

أومأت لها برأسي أن (نعم).

ـ ألم تنم هذه الليلة؟

تبدّى على وجهي الاستغراب.

ـ لا تبدو علامات النوم على وجهك.. لكن يبدو أن شيئًا قد أسعدك! ما هو؟

كنت أعتبر سمر كأختي فهي تصغرني أنا وحسن بثلاث سنوات أو أربع، أظنها في العشرين ذكية وخدومة. فأمسكت بيدها إلى الشرفة وأشرت إلى الفتاة، بعد أن فتحت جزءًا من الشرفة بحذر.. فضحكت.

ـ شششش.. اسكتي. (قلتها واضعًا سبابتي على فمي).

ـ إذًا هذا هو السبب؟

ـ من هذه، لم أرها من قبل؟ (متعجلًا)

ـ اسمها ليلى و...

ـ ليلى.. (رافعًا صوتي في أَلِفِها)

ـ اصبر (لقد أحرجتني).. هي ليست من أهل الضيعة، أبوها طبيب.. ويأتون إلى هنا ليغيروا الجو، وهي في معهد الفنون الجميلة.

ـ طبعًا.. لكن 3 أيام في لوحة واحدة؟

ـ وقد تكون 3 شهور، لكنها أَوَّل مرة تُكَلِّمُنِي عن صبية!

ـ صبية؟!

يا إلهي! ماذا أفعل؟ ما بُحت بمشاعري لأحد من قبل، فكيف أحدّث (سمر) بل وأسائلها عن فتاة؟

احمرّ وجهي من سؤالها، فأدركتْ هذا وقالت:

ـ لا تقلق لن أخبر أحدًا.. المهم أن ليلى هذه طيبة جدًّا، لكنها مجنونة بعض الشيء، تلبس مثل الأولاد ولديها دراجة نارية (قالتها رافعة حاجبيها لتفاجئني)، لكنها تعيش فقط من أجل نفسها.

لامس وصفها شغاف روحي. سأغرق الآن في بحر تأملي.

ـ يا صديقي.

«يا لتعاسة صديقك»! قلتها في نفسي ضاربًا الأرض بيُسراي في حركة لا إرادية.. لكني أفقت سريعًا: صباح الخير يا حسن.

ـ الفطور.. الفطور.

صاحت بها سمر، فهبّ حسن من سريره وجذبني لننزل إلى الأسفل. جسمي يتحرك مع حسن لكن عيني تعلقتا بالشرفة، تفتشان عن ليلى التي اختفت عندما التفتُّ إلى صوت حسن.. كدت أنزلق من أعلى السلم.

ـ ركّز يا صديقي.

جلسنا إلى السفرة المشتملة على لبن وبيض، وأنا لا أحب هذا ولا ذاك، فتناولت فنجان قهوتي وبدأت أشرب.

ـ يا بُني هذه القهوة مضرّة.

سمعت أذني هذه النصيحة من أم حسن، لكن عقلي لم يدرك أني المخاطَب، أو حتى يدرك معنى الجملة.

ـ بمَ يشرد صديقك؟

قالتها أم حسن ليرد هو عليها: وما أدراني.

فقالت سمر: دعوه، إنها عادته.

أنظر في فنجان القهوة وكأني بليلى تتمايل بقميصها السماوي، وشعرها العاري المنثور على كتفيها، ووشم معصم يسراها.

لكن لِمَ هذه الـ «ليلى»! ولماذا الآن؟ ولماذا في بيروت؟ أَلْفُ لماذا كانت تنهش عقلي.

ـ هِااي.. أين ذهبت؟

قالها حسن بعدما أنهوا فطورهم فأخجلني بها.. قعدوا وقاموا ولم أنتبه لهم. ثم أعقب: أنا ذاهب إلى السوق لأشتري بعض الأشياء.

ـ سآتي معك. (وانتصبت واقفًا).

ـ اجلس هذا بيتك، حسن سيأتي سريعًا.

أمرتني بها أم حسن، فابتسمت وأومأت بالموافقة.

ـ إن أردت فاصعد لأعلى.

قالتها سمر التي بدأت تخجلني أمام نفسي.. فصعدت.

جلست على كرسي حسن الكبير، أفكر في حالي وما أفعل. بعد أن أَسَرَّ ذهني إليَّ سؤالًا واحدًا، لِمَ هذه؟ ورأيت جسمي يمشي صوب الشرفة ويقف ناظرًا، وكأن الإجابة تكمن هناك.. في غرفة ليلى.

لا تزال ترسم.. لكنها الآن واقفة، ممسكة الفرشاة بيمناها والسيجارة في يسراها. إنها مدخنة!

أُدرك أنها أحست بمراقبتي لها، لكنها لم تفعل شيئًا؛ لم تغضب ولم تسعد، بل تركتني غارقًا في بحر تساؤلاتي. لاحظتُ أنها انتهت من لوحتها فألقتْ عقب سيجارتها، ثم ارتشفت شربة ماء وأخذت تتحرك يمنة ويسرة ناظرة إلى اللوحة من كل الجهات. ثم أسدلت ستار شرفتها واختفت وتركتني واقفًا.

ـ اللعنة على هذا الستار. لستُ في مسرحية شكسبيرية حتى تسدله وتذهب.

كادت ضروسي تُطحن لشدة عضي نواجذي، وكاد رسغ يُمناي يتفكك لضرباتي المتواليات على الحائط. ثم شعرت بالألم يعتصر ساقي اليسرى وتذكرت أني لم آتِ بأقراص الدواء معي، فانحنيت لأدلّكها. ثم رفعت رأسي فوجدتها تنظر إليَّ. نعم هي، لا أحد غيرها.. ليلى.

واقفة في حديقة منزلهم الصغيرة بجوار تلك الوردات. لوّحت لي بأصابع يدها الملساء الحانية مع ابتسامة جمعتْ شتات عقلي، فهممتُ برفع يدي لكن أشعة الشمس أجبرتني على إغماض عيني

لثوانٍ ثم فتحتهما فأبصرتها كما هي، لم تنل الشمس من عينيها، وأنّى لأشعة الشمس أن تقسو على تينك العينين!

ثم ولّتني ظهرها ناظرة إلى شجرتهم اليتيمة. فرجع جسمي خطوتين إلى الوراء والتف متجهًا إلى السلم.

ـ توقف، أقول لك توقف. أتريد أن تهرول إليها؟ كيف تفعل هذا؟

ضجر بها عقلي آمرًا بها جسدي الذي لم يأتمر. فنزلت السلم مسرعًا تتخبط قدمي بأختها حتى أتيت على آخره. فركلت طبق اللبن الموضوع أمام قطة حسن ففزعت هاربة. «حمدًا للَّه أن أم حسن لم ترني».

حتى لو رأتني ما كنت أنتبه لها، خرجتُ من الباب عدوًا إلى بيت ليلى وصدري يعلو ويهبط كأني كنت أجري لساعات وليس لدقائق معدودات.

وقفت أمام باب حديقتهم الخشبي الهرِم، فأحستْ بوجودي والتفتت إليَّ مبتسمة:

ـ Salut..!

ـ Salut mademoiselle..

عجبًا! تحييني بالفرنسية وأرد عليها أيضًا بالفرنسية. أين تشدّقي بالألفاظ العربية الفصيحة! بل وأين زعامتي التي أفرضها على أصدقائي في كل مجالسنا.. كيف تبادرني هي بالتحية!

لكن قبل أن تبدأ نفسي في عتابي قاطعها صوت ليلى:

ـ كيف حالك؟

ومدّت يدها مصافحة إياي، فالتقطها بيمناي وكأنها تنقذني غارقًا من بحر لجيّ. وأشرق وجهي لسؤالها، وعلتني هالة من الفرحة جعلتني أندفع:

ـ بخير، وأنتِ؟

ـ Moi, aussi.

ـ تتحدثين الكثير بالفرنسية، ألا تجيدين العربية؟

«ألا، وتجيدين! أهكذا تتحدث معها؟ وما هذا السؤال أصلًا»؟

عادت نفسي توبخني، لكنها الآن متقبلة الأمر بل وأحبّته! يبدو أن صوت ليلى العذب قد سحرها.

غرقت في بحر عينيها، لا أدري ماذا أقول؟ أخشى أن تقترب مني أكثر فتسمع دقات قلبي الذي يكاد يحلق من فرط سعادته، حتى انتشلتني من هذا البحر –بل وجعلتني أتألم– بسحب يدها من يدي. ثم أعقبتْ:

ـ بلى أجيد العربية. بل أستطيع أن أحدثك بالفصحى.

فابتسمت صامتًا، فأطردتْ:

ـ هل أعجبتك ليلى؟

ـ ليلى!

ـ نعم. تلك التي تراقبها من ثلاث ليالٍ.

فازدادت سرعة نبضي وابتلعت ريقي، آخذًا شهيقًا عميقًا. فقد ظننتها تقصد نفسها، قبل أن تهدئني بتوضيحها:

ـ أقصد اللوحة. اسمها «ليلى» كاسمي.

ـ لم أرَ واحدة لـ «فان جوخ» أو لـ «دافنشي» تسامتها جمالًا.

قلتها بنبرة العاشق الأبله. فردت بابتسامة ساخرة:

ـ وماذا عن بيكاسّو؟

ـ «ليلى» تفضل جميع أعمال بيكاسو.

فارتفعت ضحكاتها الجميلة الرقراقة وأخذ جسمها الرشيق يتمايل وشعرها الحريري مع النسيم.. ثم توقفتْ:

ـ تعرف أعلام الرسامين!

ـ أعرف أيضًا تشكيليين عرب.

ـ تشكيليين! (مندهشة من قولتي) مثل من؟

ـ مثل عالية الفارسي.

ـ عالية الفارسي.. عمان! ومن أيضًا؟

ـ أحمد السوداني.. وبغداد واحد.

ـ العرااق.

ـ وأعرف أيضًا المصري محمود سعيد و«دراويشه» الشهيرة.

ـ الدراويش! 2.43.. كريستيز.. جيد أنك تعرف كل هؤلاء. ومن تفضل منهم؟

ـ صراحةً السكندري ـ محمود سعيد ـ لا سيما مع الدراويش والشادوف.

ـ إنه التعصب يا صديقي.. مصريٌّ لمصري.

وضحكت ضحكتها الخفيفة فجاريتها ضاحكًا. ثم هويت من سماء «ليلى» إلى أرض شرودي واسترجاعي لما قلت.

«عالية.. بغداد واحد.. الدراويش..»! ما حملني على قول هذا؟ وما حملني على هذا الإطناب؟ وأنا الصامت دومًا، الشارد كمدًا، اللا موجود أبدًا.

ـ تعالَ.. تفضل واجلس.

نادتني بها فانطلقت بسرعة الضوء من أرضي الصماء إلى سمائها الغناء. فتحتُ الباب ووطأت أرض حديقتهم ثم توقفت.

ـ ما هذا الوشم؟ (ملوّحًا بمعصم يسراي).

فاقتربت مني ورفعت يُسراها بعرض جسدها. فقرأتُ:

ـ "C'est ma vie".

ـ هذي حياتي.

ثم لا أدرك كيف حولت وجهة بصري عنها، وهي التي تمنيت لو ألقي التحية عليها فقط، حتى لو لم تردها، ونظرتُ إلى ظهر زجاجة موضوعة على غصن تلك الشجرة المتساقطة وأحدقتُ بها:

ـ أفسنتين.. La fée verte.

ـ الجنيّة الخضراء!

وارتفع حاجباها وجحظت عيناها، واردفت بدهشة غريبة:

ـ من أين لك هذا؟

ـ (متهكمًا).. من سويسرا وإسبانيا.

فطفح على دهشتها سكونها قبل أن أزيله سائلًا:

ـ بل أنتِ من أين لكِ هذا؟

ـ من الفن.. من إدجار ديـ..

ـ ديجاس.. إدجار ديجاس L'Absinth 1876، اللعنة على هذا الفن.

فتعجبت من شدة غضبي. فحاولت الهدوء وأعقبت:

ـ وما الذي ساقكِ إلى هذا؟ لا تزالين في بداية العشرينات، في مقتبل الحياة.

ـ رأسي.

ـ رأسك؟!

ـ نعم. رأسي هي التي حملتني إلى ذلك.

ـ حملتكِ إلى نفق متهالك. ألا تعلمين كم نسبة «الثوجون» في تلك الـ..؟

ـ أعلم. (مقاطعة إياي) لكن كيف لك أنت أن تعلم؟ هل كنت..؟

ـ كنت مهتمًّا بها فقط.

ـ (متهكمة).. مهتم لدرجة «الثوجون» و«ديجاس»!

ـ و«تولوز لوتريك» أيضًا.

ـ (مندهشة).. لوترييك!

بابتسامة خفيفة؛ نعم..

«يا صديقي» صوت حسن –الذي اعتدتّ على مقاطعته لي– آتٍ من قِبل منزلهم. حتى وصل وربّت على كتفي ناظرًا إلى ليلى:

ـ Bonjour.

ـ Bonjour monsieur..

ـ اتفقت مع الجريدة على الساعة التاسعة لتقابلهم.

فسألت ليلى: جريدة؟

ـ Oui .. سيعطيهم مقالاته كي ينشروها.

ـ مقالاته؟

ـ أووووه.. ألم تعرفها بنفسك؟ هذا يا آنستي.

فقاطعته: هيا بنا يا حسن لنرى ماذا سنفعل.

وأشرت بيدي نحو المنزل أَنْ تَقَدّم. فاستدار وتحرك تجاهه، فأخرجت مفكرتي الصغيرة وقطعت منها ورقة وسجلت فيها عنوان حسابي على «فيسبوك» و«تويتر» وأرفقته:

«ليست حياتكِ وحدكِ..

C’est notre vie

إلى ليلى 24ـ10»

ثم طويت الورقة وأعطيتها ليلى، مودّعًا:

ـ أريد أن أسعد برؤيتك ثانية. وداعًا.

وأسرعت لألحق بحسن. «وداعًا.. وأسعد! ما هذه البلادة التي أصابتك فجأة؟ كان لا بد أن تقترب منها وتودعها يدًا بيد. أووه، لقد نسيتَ وضع رقم هاتفك بالورقة. يا لغبائك! ليتك تركت حسن ليثني عليك أمامها علّها تعجب بك. على أي حال إن الثناء يخجلك أكثر من الهجاء»!

بالطبع لم يكن عقلي هو معاقبي هذه المرة وإنما قلبي. أدرك حسن شرودي وعدم وجودي فخلّى لي ساحة تفكيري متعللًا أنني أعلم بمقالاتي منه وسأوفّق إن تركني أنتقي ما سأقدمه.

مرت عشر ساعات ونفسي رافضة أن تهبط من عالم الروح.. وليلى.. وبيكاسّو.. والشادوف.. والأفسنتين.. حتى اختطفني صوت أقدام تتشاجر مع درجات السلم صاعدة إلى الطابق العلوي. فنظرت إلىً الباب المفتوح فإذ بسمر تلهث من سرعة صعودها وتقول: ليلى..

ـ نعم رأيتها خرجت كعادتها قُبيل المغرب بدراجتها النارية.

ثم هالني عينا سمر اللامعتان بالدمع وصوتها صارخة:

ـ ليلى عملت حادث بالدراجة.

فارتفع الأدرينالين في دمي، وتسارعت نبضات قلبي، وتصلب جسدي واقفًا. فأكملتْ هي:

ـ ليلى ماتت.. (وخيم الحزن الصامت).

فجأة أحسست رصاصةً اخترقت صدري، ورعدًا ضرب أذني، وغصةً سكنت حلقي. وشعرت بالاختناق فالتقطت كوب ماء، وقبل أن يصل إلى فمي سقط أشلاءً.. فأدركت أنها النهاية.

ثلاثة ليالٍ وثلاثة أنهر.. ما يقرب من 72 ساعة أنقفتها في «عالم ليلى» الذي اندثر.. نهاية مأساوية متوقعة. «لمَ متوقعة؟ ولم مأساوية؟ ولم نهاية أصلًا»؟ ألا أستحق أن أتذوق طعم السعادة أو حتى أرتشف منها؟ ما الفرق بين حياتي وبين «سيناريو» أي فيلم أو مسلسل ساقط؟ بأي حق تتركني ليلى وترحل! بأي حق تعبث بي الأقدار!

لقد انتهت إقامتي في بيروت، وانتهت قصة مقالاتي، وانتهت «ليلى»..

فهرس

سامي محمود عبد الله علوان	**٥**
لحظة غابرة	٧
ولكن – لربما	١٠
لست بأولهم	١٣
أشواك الربيع	١٩
هكذا قلبي	٢٢
النظرة الأخيرة	٢٦
مرارة أقداح الدين	٣٠
لم أكن أدري	٣٣
سعاد عبد اللاه	**٣٧**
لا حديث مع الغرباء	٣٩

شريناز مجدي **٤٩**

كعكة باردة ٥١

ذكرى أم ٥٥

مصطفى الصايم **٥٩**

«هُوَ» ٦١

وائل جاد **٦٩**

تذكرة ذهاب بلا عودة ٧١

شمس عجلان **٧٩**

خيالات الوحدة ٨١

عمر محمود عبد الحليم **٩١**

لَـيْـــلَى ٩٣

كاريزما
للنشر والتوزيع